العسكرية الإسلامية

ونهضتنا الحضارية

اللواء الركن
محمد جمال الدين محفوظ

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله الذى أراد للأمة الإسلامية أن تكون أمة قوية عزيزة الجانب ، فأمرها بإعداد القوة التى ترهب أعداءها وتدفع العدوان عنها ، وكتب النصر للمؤمنين ، وأعز بتأييده وتوفيقه الصادقين الصابرين من عباده المخلصين .

وصلى الله على سيدنا محمد رسوله الكريم إمام المجاهدين وقائد جيوش الموحدين والمبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين .. وبعد :

فإن للإسلام مدرسة عسكرية مكتملة الأركان تحتوى على المبادئ والنظريات التى تقوم عليها أية مدرسة عسكرية فى الشرق أو الغرب .

وقد كان الرسول ﷺ قائد هذه المدرسة ومعلمها الأول ، وعلى يديه تعلم أجدادنا الأوائل من قادة وجنود جيش الإسلام ، وقامت الاستراتيجية العسكرية الإسلامية التى طبقها المسلمون فى معاركهم التى خاضوها إعلاء لكلمة الله ، والتى واجهوا بها أعداء يفوقونهم عددا وعدة فانتصروا عليهم بإذن الله وأصبحوا ظاهرين ، وسجل التاريخ أن المجاهدين الصادقين قوم لا يقهرون .

غير أنه مما يلفت النظر فى عالمنا العربى والإسلامى أن القادة

العسكريين فى أغلب دولهم يؤسسون دراساتهم العسكرية على النظريات والعقائد العسكرية والتاريخ الحربى نقلا عن الغرب أو الشرق ..

ولعل من أخطر الآثار التى ترتبت على ذلك ما يلى : ـ

١ ـ ترسيخ الاعتقاد بأنه ليس للإسلام نظريات عسكرية ولا أعمال قادة ولا تاريخ حربى يستحق الدراسة فتنطمس بذلك معالم (العسكرية الاسلامية) التى هى بحق جانب رائد من جوانب الحضارة الإسلامية .

٢ ـ ترسيخ الاعتقاد بأن الأمة العربية والإسلامية لا تستطيع إلا أن تكون تابعة لغيرها فى كل مجالات الحياة ومنها المجال الحربى .

٣ ـ تحويل أبناء هذه الأمة العريقة عن مقوماتهم الأساسية وقطعهم عن كل ما هو أصيل فى حياتهم ، وتحويل اتجاهاتهم بعيدا عن كل ما يتصل بالدين والقيم والأخلاق والكيان النفسى الذاتى .

كما يلفت النظر أيضا عدة أمور تساهم كلها فى خلق المناخ الذى يدعم تلك الاتجاهات ويحقق لها أهدافها . ومن هذه الأمور ما يلى :

١ ـ الصيحات الهدامة التى تنطلق فى بعض أجوائنا منادية بأن الطريق الى التقدم إنما هو فى تصفية التراث القديم والانصهار الكامل فى بوتقة المدنية الغربية .

٢ ـ محاولات إخفاء معالم العسكرية الإسلامية والتهوين من قيمتها ، ومن ذلك مثلا دعوى أَنَّ الإسلام قام بالسيف ، وهى دعوة مغرضة من بين أهدافها فرض نوع من الحساسية حول تناول

الجوانب العسكرية فى الإسلام بحيث يؤثر الكتاب العسكريون المسلمون المتخصصون تجنب دراستها ومنها أيضا أن المؤرخين الأجانب الذين كتبوا عن العسكرية الإسلامية لم يعطوها حقها من الدراسة والتحليل من وجهة نظر العلم العسكرى وفن الحرب ، فمنهم من ادعى أن الإسلام متخلف فى المجال الحربى ، ومنهم من ركز على الجوانب المعنوية والعَقَدِيَّة دون أن يتناول الجوانب الفنية ، ومنهم من أراد التهوين من قيمة العسكرية الإسلامية ، فعلل سرعة الفتح الإسلامى باندفاع الغرائز الحربية المتأصلة فى المسلمين منذ الجاهلية التى تدفعهم الى السلب وأعمال القرصنة ، وأضاف الى ذلك ضعف الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية .

لكن العسكرية الإسلامية لا يمكن إنكارها ، أو الغض من قيمتها ، وهى تشكل جانبا رائدا من الحضارة الإسلامية ومن الحضارة الإنسانية ايضاً ، ولولاها لتغير وجه التاريخ ولتخلفت مواكب الحضارة الحديثة عند الظهور .

ومن أجل ذلك فإنَّ « إحياء العسكرية الإسلامية » يعد مطلبا حيويا لإقامة نهضتنا الحضارية الشاملة ، فما زالت ـ وسوف تظل ـ نظرياتها الأساسية قادرة على أداء دورها فى هذه النهضة ، مثلما أدت دورها فى إقامة الحضارة الإسلامية فى الماضى .

والطريق الى إحياء العسكرية الإسلامية هو أن يتقرر دراستها فى كلياتنا العسكرية باعتبارها الأساس الأصيل الذى يشكل لنا القاعدة الراسخة التى تنطلق منها وننفتح على علوم عصرنا ومنجزاته بكل فكر مفتوح لا ينفصل عن دائرة التطور أو الحركة الحية .

ونحمد الله تعالى أن هيأ لنا الفرصة للدعوة الى إحياء العسكرية الإسلامية فى بعض المؤتمرات الإسلامية الدولية وإقناع العالم الإسلامى بضرورة دراستها فى الكليات العسكرية ومنها مؤتمر لندن فى فبراير ١٩٧٩ الذى اختص بأمور الدفاع والعالم الإسلامى ، والمؤتمر العالمى الثالث للسيرة والسنة النبوية الذى عقد بالدوحة (دولة قطر) فى نوفمبر ١٩٧٩ وقد صدرت توصيات بذلك فى قرارات كلا المؤتمرين ونسأل الله تعالى أن تجد طريقها الى التنفيذ والتطبيق .

ومن توصيات مؤتمر السيرة فى الدوحة :

« اعتماد العقيدة العسكرية الإسلامية ـ دون غيرها ـ فى الجيوش الإسلامية والعمل على إصدار كتب فيها . وتطبيق أصولها فى التدريب والتعليم والسلوك العسكرى مع الاهتمام بانتقاء الضباط من العناصر المؤمنة حرصا على القدوة الطيبة واختيار العلماء المخلصين لتولى الإرشاد فى الجيش والحرص على بناء المساجد فى ثكناته العسكرية »

وقد قصدنا بهذا الكتاب التعريف ببعض جوانب العسكرية الإسلامية وبدورها الرائد فى تأمين سلامة الأمة الإسلامية وبناء حضارة الإسلام .

والله اسأل أن ينفع المسلمين بما فيه ، فى هذا الوقت الذى يسعون فيه الى بناء نهضة حضارية شاملة تعيد للإسلام مكانته فى القلوب ، وتعيد للمسلمين مكانتهم التى أرادها الله تعالى فى قوله ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾ .

والله تعالى ولى التوفيق

المؤلف

قائد المدرسة العسكرية الإسلامية

كانت هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة نقطة انطلاق نحو قيام أول مدرسة عسكرية فى تاريخ الإسلام ..

وقد قامت هذه المدرسة على تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة القولية والعملية والتقريرية ، فكما نظم القرآن كافة أمور الحياة دينا ودنيا ، فقد عالج أمور الحرب باعتبارها ظاهرة اجتماعية ، ووضع خير المناهج والمبادئ لكل ما يتصل بها من حيث أهدافها وقوانينها وآدابها .

وكان الرسول ﷺ قائد هذه المدرسة ومعلمها الأول ، وهو المثل الكامل والقدوة المثلى كما يقول الله تعالى ﴿**لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة**﴾ (الأحزاب ٢١) وهو القائد الذى اصطفاه الله ليبلغ أعظم رسالة وجعله تحت حراسته ورعايته حتى كان أفضل قومه ، واستوفى من مكارم الأخلاق كل مكرمة لم ينلها إنسان قبله ولا بعده ، حتى خاطبه الله بقوله ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ (القلم ٤) وحتى حدث هو عن نفسه فقال : « **أدبنى ربى فأحسن تأديبى** » .

فلا عجب إذن أن يظهر الرسول القائد ﷺ فى الأمور الحربية ، ما لا يتسامى إليه قادة الحروب الذين تعلموا فنونها واتخذوها صناعة ، من عبقرية فذة فى القيادة والتخطيط وإدارة العمليات الحربية .

وفى هذه المدرسة تعلم أجدادنا المسلمون الأوائل من قادة وجنود جيش الإسلام الأول ، وطبقوا تعاليمها ونظرياتها عمليا فى ميادين القتال إعلاء كلمة الله ودفاعا عن الدين والأمة . فكانوا مضرب الأمثال فى الكفاءة القتالية وفى الشجاعة والعبقرية الحربية ، وجاءت النتائج بما يثبت بالبرهان القاطع أن نظريات المدرسة العسكرية الإسلامية قد أثبتت عمليا صحتها وكمالها .

وكان المسجد هو الثكنة الأولى للمدرسة العسكرية الإسلامية . فالمسجد موضوع لأمن جماعة المسلمين . فأى عمل من الأعمال يجمع بين منفعة الدين وأهله فهو جائز فيه مباح بين جدرانه . فقد سمح الرسول ﷺ باتخاذ المسجد ميدانا للتدريب . وكان عليه الصلاة والسلام يعقد فيه مجلس الشورى للتخطيط الحربى . ويصدر القرارات والتعليمات الحربية . ويحشد أصحابه ويحرضهم على الثبات فى القتال ويبصرهم بآدابه . ومن المسجد كانت تنطلق السرايا والغزوات وإليه يعود المجاهدون بعد المعركة وفيه كان يسعف المصابون وتضمد جراحهم .

انجازات العسكرية الإسلامية :

ولا يحتاج الأمر لإثبات صحة نظريات العسكرية الإسلامية وكمالها وتفوقها الى بحث طويل وإنما تكفى شهادة التاريخ لما أنجزته العسكرية الإسلامية من مهام وما حققته من نتائج أصبحت من الحقائق التاريخية التى لا تنازع والتى نذكر منها على سبيل المثال ما يلى :

أولا : فى عصر النبوة

١ ـ حققت العسكرية الإسلامية « الهدف الاستراتيجى » وهو تأمين الدعوة وقيام الدولة الإسلامية . وتوفير الأمن والاستقرار لها لكى تؤدى رسالتها السامية لخير البشرية وقد بلغت عمليات القتال أكثر من ستين عملية قاد منها الرسول ﷺ بنفسه ثمان وعشرين غزوة « وقد واجه المسلمون ـ وهم قلة فى العدد والعدة ـ فى هذه العمليات أكثر من عدو . فقد حاربوا المشركين واليهود والروم »

٢ ـ ارتفعت الكفاءة القتالية لجيش المسلمين فى مجال الرماية والتسليح والتركيب التنظيمى والقوة الضاربة حتى أصبحت تضارع كفاءة جيوش الدول العظمى المعاصرة لها وهى فارس وبيزنطة وذلك كما يلى :

(أ) فقد كان مستوى المسلمين فى الرمى فى بادئ الأمر أقل من مستوى الفرس الذين وصفهم الرسول ﷺ لأصحابه فقال : « **هم أكثر منكم رمية** » . فعمل الرسول القائد على رفع مستواهم فى الرمى ـ وقد وردت فى ذلك أحاديث كثيرة ـ حتى استحقوا أن يسموا بحق « رماة الحدق » أى أن الرامى منهم إذا أراد تصويب سهمه نحو عين عدوه لم يخطئها .

(ب) وأضاف المسلمون الى أسلحة قتالهم أسلحة جديدة لم تكن لديهم من قبل وهى أسلحة الحصار ودك الحصون وهى المنجنيق والعراوات والدبابات . فقد أرسل الرسول ﷺ بعثة من اثنين من المسلمين الى جرش (فى الشام) فتعلما صنعة هذه

الأسلحة . وقد استخدم المنجنيق فعلا فى حصار الطائف وخيبر .

(جـ) زادت قوة الفرسان فى التركيب التنظيمى لجيش الإسلام حتى بلغت الثلث من مجموع قوته . وذلك خلال زمن قصير لم يتجاوز سبع سنوات . فبعد أنْ كانت قوة الفرسان فى أول معركة وهى بدر لا تكاد تذكر (فرسان اثنان) قفزت الى عشرة آلاف فارس فى جيش قوامه ثلاثون ألف مقاتل فى آخر معركة وهى تبوك .. وبذلك لحق جيش الإسلام فى هذا المجال بالاستراتيجية العسكرية الفارسية والبيزنطية التى كانت تجعل من الفرسان ـ كما هو ثابت فى التاريخ الحربى وتطور الحرب ـ القوة الضاربة فى جيوشها .

٣ ـ وهكذا شاءت إرادة الله عز وجل أن يلحق الرسول القائد ﷺ بالرفيق الأعلى وقد أعد جيش الإسلام وهيأه لمواجهة هاتين القوتين العظميين . ولقد حدثت هذه المواجهة فعلا وعلى الفور فى عهد الخليفة الأول أبى بكر الصديق رضى الله عنه كما أثبتت أحداث التاريخ .

ثانيا : فى عصر الفتوحات

١ ـ أخذ المسلمون بأسباب التقدم والتطور فى الكفاءة القتالية ، فأدخلوا على أسلحة الحصار مثلا كثيرا من التحسين والتهذيب وكثر حصارهم بها للمدن المحصنة ذات الأسوار العالية فى حروب العراق والشام وفتح مصر . كما تطور الجيش الإسلامى فى التركيب التنظيمى وتشكيلات القتال وإدارة المعارك .

وقد أدهش المسلمون بملاحقتهم عصرهم الفرس والروم . وقد

اعترف بذلك الامبراطور البيزنطى « ليو » ـ مع ما عرف عنه من تعصب ضد العرب والمسلمين ـ فنقل عنه فون كريمر فى كتابه (الشرق تحت حكم الخلفاء) أنَّه قال : « إن الجندي العربي ما كان يفترق عن الجندى البيزنطى فى المؤن والسلاح : فالأسلحة هى نفس الأسلحة ، القوس والسهم والسيف والبلطة والخوذة وقاية الرأس ، والدرع وقاية للبدن ، والحديد يلبس فى الأذرع والسيقان .

٢ ـ خاض المسلمون بنجاح أشكالا جديدة من العمليات الحربية لم يألفوها فى عصر النبوة مثل عمليات عبور الأنهار والموانع المائية ، وعمليات الحصار الطويلة والمسير الطويل ، وتأمين خطوط المواصلات والإمداد الطويلة ، وإقامة المعسكرات والثغور والقواعد الحربية الإدارية ، كما مارسوا بكل كفاءة إدارة شئون البلاد المفتوحة ، وقد امتدت فتوحاتهم فى أقل من مائة عام من حدود الصين شرقا الى شاطىء الأطلسى غربا .

٣ ـ أثبتت القيادة الإسلامية كفاءة لا نظير لها فى إدارة دفة الحرب فى جبهتين استراتيجيتين فى وقت واحد وفى مواجهة أعظم قوتين عالميتين فى ذلك الوقت هما فارس وبيزنطة . وذلك مثل فريد فى التاريخ لم تبلغه أقوى الأمم وأوسعها خبرة فى الحروب ، فالمعروف أن الحرب فى جبهتين من أصعب المواقف التى تواجه القيادة ، فهى تنطوى على مشكلات بالغة الصعوبة والتعقيد وتتطلب كفاءة بالغة فى التخطيط والسيطرة وإدارة الحرب . ويكفى أن نعلم أن الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) لم يستطيعوا أن يهزموا

العسكرية الألمانية إلا عن طريق فتح جبهة ثانية للقتال .

٤ ـ اقتحم المسلمون بكل اقتدار مجالا جديدا تماما من مجالات الصراع المسلح هو الحرب البحرية وعمليات الإبرار البحرى و إقامة دور الصناعة لبناء السفن الحربية ، وقد برعوا فى هذا المجال الجديد الى حد أنهم انتصروا فى المعركة البحرية على أساطيل بيزنطة وكانت أعظم قوة بحرية فى زمانها ، يقول ابن خلدون :

« إن المسلمين تغلبوا على لجة بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) وإنَّ أساطيلهم سارت فيه جائية وذاهبة من صقلية الى تونس ، والرومان والصقالية والفرنجة جميعا تهرب أساطيلهم أمام البحرية العربية التى ضربت عليهم كضراء الأسد على فريسته (أى أن البحرية الإسلامية كانت تطارد أساطيل الأعداء) .

٥ ـ والمحصلة النهائية لإنجازات العسكرية الإسلامية فى عصر الفتوح هى ما يلى :

(أ) انتصار « العسكرية الإسلامية » على كل من العسكرية الفارسية والعسكرية البيزنطية بكل ما وراءهما من تاريخ حربى طويل وخبرة واسعة بفنون الحرب والقتال .

(ب) فتح الطريق لتأسيس الحضارة الإسلامية التى أضاءت للإنسانية مشاعل النور والخير فى ميادين العلوم الطبيعية والإنسانية ، فأصبحت العسكرية الإسلامية بذلك جانبا رائدا من حضارة الإسلام ومن الحضارة الإنسانية بالتالى . ولولاها لتغير وجه التاريخ ، ولتخلفت مواكب الحضارة الحديثة عن الظهور .

العقيدة العسكرية الإسلامية

والأمر الذى يستحق التأمل حقا هو ما الذى مكن العسكرية الإسلامية من تحقيق تلك الانجازات المذهلة ؟ !

لقد حاول القائد العسكرى المشهور « مونتجمرى » أن يجيب على هذا السؤال فى كتابه « الحرب عبر التاريخ » فقال : « من العوامل التى جعلت العرب قوما لا يقهرون . شجاعتهم وأقدامهم وحشدهم لقواتهم ... على أن هناك عوامل أخرى شاركت فى نجاح زحفهم غير العادى الذى كان عبارة عن نجاح تلو النجاح . فقد كان العرب يندفعون نحو القتال تحركهم أقوى دوافع الحرب : الإيمان والعقيدة .. لقد كانوا يؤمنون إيمانا راسخا بالدعوة الإسلامية ويتحمسون لها ويغارون عليها . وقد أدى هذا الى اعتناقهم مبدأ صلبا هو : الجهاد فى سبيل الله ... لقد وصلت الفتوحات الإسلامية مدى لم تصله فى أى عهد سابق . وليس ذلك لأنهم كانوا أكثر عددا . بل لأنهم كانوا يستقبلون فى كل مكان يصلون إليه كمحررين للشعوب من العبودية وذلك لما اتسموا به من تسامح وإنسانية وحضارة ، فزاد إيمان الشعوب بهم ، علاوة على تميزهم فى نفس الوقت بالصلابة والشجاعة فى القتال .. »

ووصف القائد البيزنطى « نفقور فوقاس » المسلمين فى القتال فقال : « عندما يتوقعون النصر فهم قوم غاية فى الجسارة يصمدون بثبات فى صفوفهم ، ويقاتلون بإصرار فى وجه أعنف الهجمات ، وعندما يلاحظون أن وحشية عددهم بدأت تتراخى ، يحشدون

قواتهم ويهجمون باستماتة .. »

ورغم ما فى هذه التفسيرات من صحة إلا أنها لا تصل الى أساس الموضوع وجوهره ولا تنظر الى العسكرية الإسلامية نظرة شاملة .

إن ما ذكره هؤلاء وغيرهم ليس إلا جانب من عناصر « التنظيم الحربى الإسلامى المتكامل » وهو ما تعارف العسكريين على تسميته « العقيدة العسكرية » (Military Doctrine)

السر فى تفوق العقيدة العسكرية الإسلامية :

لقد كانت للعرب قبل الإسلام خبرة طويلة بالحروب وكانوا يتصفون بكثير من السجايا الحربية وكانوا شجعانا لا يهابون الموت .

● لكنهم لم يحققوا ما حققوه بعد الإسلام من فتوحات امتدت من حدود الصين شرقا الى شاطىء الأطلس غربا فى أقل من مائة عام !

● وكان النبى ﷺ فى قتاله دفاعا عن الدين يحارب عربا بعرب ، بل قرشيين بقرشيين ، فلماذا كان المسلمون ينتصرون على الرغم من تفوق أعدائهم فى العدد والعدة ؟

● وكان لفارس وبيزنطة تاريخ حربى حافل وعقائد عسكرية راسخة وقادة كبار لهم شأنهم فى التاريخ الحربى وفن الحرب . فلماذا انكسرت العسكرية الفارسية والبيزنطية أمام العسكرية الإسلامية على الرغم من أنها دخلت معها الصراع المسلح لأول مرة ؟ !

إن السر هو « الإسلام » .. فهو وراء ذلك التحول العظيم الذى

حدث للعرب حتى صارت إليهم مقادة العالم ، ووصلوا الى القمة التى لم تصل إليها أمة ، وحققوا بجهودهم وجهادهم وسمو أخلاقهم قول الله فيهم : **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾** (آل عمران ١١٠) وقد قال الله جل شأنه فى القرآن : **﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفآء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى﴾** (فصلت ٤٤)

مبادئ أصيلة من مصدر أصيل :

● ولا مراء فى أن أصالة مبادئ العسكرية الإسلامية تعود الى أنها نابعة من منبع أصيل هو القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .

١ ـ فالقرآن الكريم ليس كتاب دين يبحث على إخلاص العبادة لله والتقريب إليه فحسب . وإنما هو الى جانب هذا وما يتصل به من عقائد وعبادات وأوامر ونواه ، دستور من أعظم الدساتير التى عرفتها الإنسانية فى تاريخها الطويل الممتد عبر الزمن ، وذلك بما تضمنه من القواعد الكفيلة بقيام المجتمع الإنسانى السليم كما يقول الله تعالى : **﴿قد جآءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ويهديهم الى صراط مستقيم﴾** (المائدة ١٥ ـ ١٦) .

٢ ـ وحياة الرسول ﷺ وأقواله وتقريراته كانت بيانا عمليا للقرآن الكريم الذى جاء بالمبادئ وقليل من التفصيلات ، وترك البيان التفصيلى لرسول الله تسنده رعاية الله ووحيه ، وقال مخاطبا رسوله :

﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ (النحل ٤٤) .

وخاطب المؤمنين فقال : **﴿وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾** (الحشر ٧)

فكانت السنة بذلك المصدر الثانى للمسلمين فى معرفة دينهم .

وكان الرسول ﷺ منة عظمى من الله على المؤمنين يتلو عليهم آيات القرآن ويبينها ويتعهدهم بالتربية والتزكية والتعليم وما يدخل فى معنى الحكمة من قول حكيم وعمل محكم وعلم نافع ...

* فالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هما مصدر مبادئ العسكرية الإسلامية وكل مبدأ إسلامى . وقد قال ﷺ عنهما فى حجة الوداع : « **تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا بعدى : كتاب الله وسنة نبيه** » . وقال تعالى : **﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشآء من عبادنا وإنك لتهدى الى صراط مستقيم﴾** (الشورى ٥٢) .

مبادئ علوية وليست قانونا وضعيا :

● وإذا كانت المبادئ التى تقوم عليها مدارس الشرق والغرب العسكرية . تقررها القيادات العليا فى ضوء نظرتها نحو الحرب وتقديرها لطبيعتها وأهدافها السياسية وإمكاناتها الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك من الظروف الاستراتيجية . فإن شأن هذه المبادئ شأن القوانين الوضعية التى تنتجها عقول المشرعين من

البشر ، وتخضع للظروف وتنطوى على الصواب والخطأ معا ، وهذا ما تثبته أحداث التاريخ على مر العصور . فإنها تؤثر وتغير فى المبادئ والقواعد التى تقوم عليها المدارس العسكرية بحكم تأثرها نفسها وتغيرها من وقت الى آخر ، ومن عصر الى عصر ، وفى الظروف والأحوال المختلفة التى تتقلب فيها الدولة أو تتطور .

● أما مبادئ العسكرية الإسلامية فإنها بحكم انبثاقها من القرآن والسنة ـ تتبوأ مكانة عاليه ، وتتميز بالاستقرار والثبوت وشرف المقاصد ، فالرسالة الإسلامية ليست من صنع إنسان يخطئ ويصيب ، وإنما هى من الله أنزلها على رسوله بالتعبير الإلهى نفسه ، كما أنها فى غاية الأحكام والدقة جملة وتفصيلا ، لأنها من لدن حكيم خبير لا يخطئ ولا يخفى عليه شئ وقد أودعها كتابا :

﴿**أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير**﴾ (هود ١) .. ﴿**وإنَّه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد**﴾ (فصلت ٤٢) .

● وقد تكفل الله بحفظ هذا الكتاب على مر العصور والأيام ، فلا يتغير ولا يتبدل ، كما يفهم من قوله تعالى : ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ وكما يفهم من الواقع التاريخى الذى يشهد بأنه لم ينله تحريف أو تزييف ، بل ظل محفوظا فى الصدور والسطور ، ليظل حجة على الناس الى يوم القيامة ، ويتصل بوسائل حفظه ما جاء به العلم حديثا من وسائل التسجيل على الاسطوانات والأشرطة ليتسع الانتفاع بهديه على أوسع نطاق ، وليقع الاستماع إليه فى كل مكان فى الأرض .

● ولا تزال ـ وستظل كذلك ـ سنة الرسول ﷺ . مذكرة تفسيرية لهذا الكتاب ، وبيانا له ، وقد كان ﷺ كما قالت عائشة رضى الله عنها :

«كان خلقه القرآن» .

عقيدة عسكرية دينية :

● وعلى هذا الأساس يمكن أن يقال أن « العقيدة العسكرية » للأمة الإسلامية عقيدة دينية ، « والعقيدة العسكرية » مصطلح من مصطلحات العالم العسكرى يقصد به « السياسة العسكرية المرسومة التى تعبر عن وجهات النظر الرسمية للدولة فيما يتصل بالمسائل والقواعد الأساسية للصراع المسلح ، وما يتعلق بطبيعة الحرب وغاياتها (من وجة نظرها) وطرق إدارتها والأسس الجوهرية لإعداد البلاد والقوات المسلحة للحرب ، وتحدد العقيدة العسكرية على أعلى مستوى فى الدولة أى بمعرفة القيادة السياسية والعسكرية العليا لتحقيق الأهداف والغايات القومية العليا » .[1]

● وارتباط العسكرية الإسلامية بالدين يميزها على غيرها من العقائد العسكرية التى تقوم على أسس سياسية أو مذهبية .

١ ـ وأول هذه المزايا الثبات والاستقرار لأن الدين أثبت وأدوم من السياسة .

---

(١) فى المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية إن « العقيدة » هى الحكم الذى لا يقبل الشك فيه لدى معتقده ، ويطلق عليها العسكريين الأجانب لفظ « .. Doctrine وهى فى الأصل كلمة لاتينية تعنى النظرية العلمية والفلسفية .

٢ ـ وثانيها إنها لا تخضع للأهواء والأطماع والمصالح كما هو الحال فى السياسة غالبا.

٣ ـ وثالثها أنها تنشىء فى نفس المقاتل حالة من الاقتناع بسلامتها ونبل مقاصدها مما يولد لديه أقوى الدوافع النفسية نحو العمل بمبادئها بكل إخلاص وحماسة فى السلم والحرب، واسترخاص النفس فى سبيل القضية التى يحارب من أجلها.

● ويقول الأستاذ عباس محمود العقاد[١] : « إن تجارب التاريخ تقرر لنا أصالة الدين فى جميع حركات التاريخ الكبرى ولا تسمح لأحد أن يزعم أن العقيدة الدينية شئ تستطيع الجماعة أن تلغيه، ويستطيع الفرد أن يستغنى عنه فى علاقته بتلك الجماعة أو فيما بينه وبين سريرته المطوية عمن حوله ولو كانوا أقرب الناس إليه.

ويقرر لنا التاريخ أنه لم يكن قط لعامل من عوامل الحركات الإنسانية أثر أقوى وأعظم من عامل الدين، وكل ما عداه من العوامل الأخرى فى حركات الأمم. فإنما تتفاوت فى القوة بمقدار ما بينه وبين العقيدة الدينية من المشابهة فى التمكن من أصالة الشعور وبواطن السريرة ... هذه القوة لا تضارعها قوة العصبية ولا قوة الوطنية ولا قوة العرف ولا قوة الأخلاق ولا قوة الشرائع والقوانين، إذ كانت هذه القوة إنما ترتبط بالعلاقة بين المرء ووطنه، أو العلاقة بينه وبين نوعه على تعدد الأوطان والأقوام. أما الدين فمرجعه الى العلاقة بين المرء وبين الوجود بأسره وبعد أن يتسع لكل ما فى الوجود

---

(١) « حقائق الإسلام وأباطيل خصومه » ص ١٥ ـ ١٦

من ظاهر وباطن ، ومن علانية وسر ، ومن ماض أو مصير الى غير نهاية بين آزال لا تحصى فى القدم . وآباد لا تحصى فيما يكشف عنه علام الغيوب ، وهذا على الأقل هو ميدان العقيدة الدينية فى مثلها الأعلى وغايتها القصوى وإن لم تستوعبها ضمائر المدنيين فى جميع العصور .

ومن أدلة الواقع على أصالة الدين ، إنك تلمس هذه الأصالة عند المقابلة بين الجماعة المتدينة والجماعة التى لا دين لها أو لا تعتصم من الدين بركن مكين .. وكذلك تلمس هذه الأصالة عند المقابلة بين فرد يؤمن بعقيدة من العقائد الشاملة ، وفرد معطل الضمير مضطرب الشعور يمضى فى الحياة بغير محور يلوذ به وبغير رجاء يسمو إليه .

فهذا الفارق بين الجماعتين وبين الفردين كالفارق بين شجرة راسخة فى منبتها وشجرة مجتثة من أصولها .. وقل أن ترى إنسانا معطل الضمير على شىء من القوة والعظمة إلا أمكنك أن تتخيله أقوى من ذلك وأعظم إذا حلت العقيدة فى وجدانه محل التعطل والحيرة » .

مبادئ غير عدوانية :

● وغير خاف على أحد أن واضعى الاستراتيجية العسكرية للدول الاستعمارية يصوغونها لخدمة سيستها العدوانية التى توجه عبقرية الإنسان الى الأضرار بنفسه عن طريق تحويل الاكتشافات العلمية الى وسائل رهيبة للحرب التدميرية مثلما استخدمت

الاكتشافات العلمية المتعلقة بتفتيت الذرة فى صناعة القنابل الذرية . حتى لقد نشأت نظريات لا إنسانية من ابتكار علماء تلك الدول مثل من قال : « أعتقد أن من واجبنا أن نكون على استعداد كامل للعودة الى قانون الغاب والبدء منه . فعلى كل منا أن يتعلم فن القتال ، وأنا لا أعتقد أن الحرب يجب أن تقتصر على الجيوش والأساطيل والقوات الجوية . أو أن الحدود والقيود يجب أن تفرض على أساليبها أو أسلحتها التدميرية . فأنا لا أعارض فى حرب الجراثيم ولا استخدام الغازات السامة أو القنابل الذرية والهيدروجينية والصواريخ عابرة القارات . وأنا لن أطلب الرأفة بالمستشفيات والكنائس والمدارس أو بأية تجمعات سكانية أخرى » .

● ونسمع كذلك عن العلماء الذين يجرون حساباتهم لمعرفة عدد القنابل الهيدروجينيه اللازمة لإزالة كل حياة على وجه البسيطة .

● أما الإسلام ـ الذى تنبثق منه مبادئ العسكرية الإسلامية ـ فهو دين السلام ، ولم يشرع القتال فيه إلا لرد العدوان والدفاع عن الدعوة وحرية التدين ، كما أنه يحرم العدوان .. قال تعالى :

﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين . الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه

بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين (البقرة ١٩٠ ـ ١٩٤)

وتوجه هذه الآيات أيضا الى أن الغاية التى يجب على المسلمين أن يكفوا عندها عن القتال هى انتهاء العدوان عليهم .

● يقول المشير مونتجمرى فى كتابه (الحرب عبر التاريخ) : « وقد وصلت الفتوحات الإسلامية مدى لم تصله فى أى عهد سابق ، وذلك ليس لأنهم كانوا أكثر عددا بل لأنهم كانوا يستقبلون فى كل مكان يصلون إليه كمحررين للشعوب من العبودية وذلك لما اتسموا به من تسامح وإنسانية وحضارة ، فزاد إيمان الشعوب بهم ، علاوة على تميزهم فى الوقت نفسه بالصلابة والشجاعة فى القتال ، وقد أدى كل هذا الى اعتناق معظم الشعوب التى انتصرت عليها العرب الدين الإسلامى » .

بناء شخصية المقاتل

الانسان هو العنصر الحاسم :

● من أهم ما يقرره «العلم العسكرى» فى العصر الحديث . أن «الانسان» هو العنصر الحاسم فى بناء الكفاءة القتالية للقوات العسكرية وفى قدرتها على اداء ، مهامها فى السلم والحرب ... ويعبر عن هذا المعنى قول مشهور يعرفه العسكريون :

ـ «ليست العبرة بالمدفع . ولكن بالرجال الذين وراء هذا المدفع» .

ـ «لا توجد وحدة رديئة . بل قائد ردىء» .

● ومن أهم ما يقرره «علم الادارة» فى هذا العصر أيضاً ، أن «الانسان» هو العنصر الحاسم فى كفاءة أية منظمة إدارية . وفى قدرتها على تحقيق أهدافها ، ويعبر عن هذا المعنى أيضاً قول مشهور يعرفه رجال الادارة :

ـ «ان أكثر النظم تطوراً وكفاية لا يساوى أكثر مما يتوفر له من الرجال» .

ـ « ان أهم العوامل الاستراتيجية فى حفز التعاون البشرى هو قدرة القائد» .

● والحق أن ما اجتمعت عليه كلمة رجال العسكرية ورجال الادارة ، ينطوى على معانى كثيرة لعل أهم ما يلفت النظر منها أن

نظرة هؤلاء واولئك إلى العنصر البشرى على أنه عنصر هام وحاسم ويتطلب قيادة حكيمة رشيدة ، نظرة حديثة ، وان المبدأ الذى قرروه لم يصلوا إليه إلاّ فى العصر الحديث . والتاريخ خير شاهد على ذلك . سواء تاريخ العلم العسكرى وفن الحرب أو تاريخ علم الادار وتطور الفكر الادارى وهو ما نعرض بعض الأمثلة له فيما يلى:

تطور العلم العسكرى فى نظرته إلى الانسان :

● فى الماضى كان مفهوم «الانضباط العسكرى» بعيداً عن الاعتراف بفردية الانسان أو احترام ذاته ، ويعبر عن ذلك القول المشهور لفريد ريك الأكبر : «انظر إلى هؤلاء الرجال .. لو اختبرتهم واحداً واحداً لوجدتهم يكرهوننى لكنهم متى اجتمعوا فى صفوفهم ، وعلموا أن الضابط وراءهم بالسوط ، فانهم يضطربون خوفاً ، ويكفى أن أمرهم حتىٰ يلقوا بانفسهم فى النار دون تفكير . لأنهم يجهلون كل شىء حتىٰ الغرض الذى يقاتلون من أجله» .

ثم تطور مفهوم الانضباط على أساس تقدير قيمة الانسان حتىٰ اصبح يعرف ، اليوم فى «علم النفس العسكرى» بأنه هو» الحالة العقلية ومقدار التدريب اللذان يجعلان الطاعة والسلوك السليم اموراً غريزية فى جميع الظروف .»

أى أن الانضباط شىء يمكن تنميته فى عقل الانسان عن طريق التدريب ويتجلى فى الطاعة والسلوك السليم بصورة غريزية أو تلقائية ، وأهم ما ينطوى عليه هذا التعريف هو أن الطاعة ليست هى كل محتويات الانضباط ، فما هى الا جزء منه ، وان الانضباط

الحق لا يكتمل الا إذا فعل الانسان ما يعرف أو يعتقد أنه صحيح حتى «فى غيبة الأوامر أو الرقابة» . كما انه يتطلب أن يحافظ المرء على الطاعة والسلوك السليم فى جميع الظروف فى ظل العوامل والمؤثرات والضغوط المختلفة ، وهو ما يعبر عنه بأن تكون «الطاعة والسلوك السليم أموراً غريزية فى جميع الظروف» .

● والأمر الذى نريد أن نلفت النظر إليه هو أن رجال العسكرية وعلم النفس العسكرى لم يقرروا لدوافع انسانية مجردة ، بل ان تطور شكل الحرب هو الذى دفعهم إليه . ففى الحروب القديمة كانت الجيوش تحارب فى صفوف وجماعات متراصة ومتلاصقة ، فكانت «شخصية الفرد» تذوب فى الجماعة التى تجرفه معها وتسنده . وتحجب نقط الضعف التى فيه تحت تأثير أن الجماعة تنظر إليه وترقب سلوكه ، واحساسه المعنوى بالطمأنينة لوجود زملائه على جنبيه ، فضلاً عن أن رقابة القائد وسيطرته على رجاله بالعين والصوت كانت أمراً ميسوراً لقربه منهم ولكنهم متجمعين .

أما الحرب الحديثة التى ظهرت فيها اسلحة القتال ذات قوة النيران الهائلة ، واسلحة «التدمير الشامل» مثل القنابل الذرية فقد اضطرت الجيوش إلى الانتشار على مساحة واسعة من الأرض ، فأصبحت هناك مسافات بين الجندى وزميله ، بل أن الجندى الواحد قد يواجه وحده موقفاً لا يخلصه منه الا تفكيره وتصرفه وحدهما ، كذلك أصبحت سيطرة القائد على جنوده أكثر صعوبة وتعقيداً عن ذى قبل ، مما يمكن معه القول أن عنصر الرقابة المباشرة على الجندى فى الميدان لم يعد ميسوراً .

● فاهم ما يستخلص من تلك المقارنة بين الحرب القديمة والحرب الحديثة من حيث طبيعة كل منهما وموقف المقاتل الفرد فيهما ، أنه لا قيمة للفرد الذى تعود الا يؤدى واجبه الا اذا كان هناك رقيب عليه ، بل إنَّ مثل هذا الفرد يصبح وبالاً على الجماعة .. إذ قد يؤدى اهماله أو تقاعسه (وهو فرد واحد) إلى هزيمة القوة وهلاكها .. أى أن الانضباط العسكرى ـ بحسب التعبير العلمى ـ لم يعد فى «صلب الجماعة» كما كان بالأمس بل أصبح فى «صبب كل فرد» .

ولا يتأتى تحقيق هذا النوع من الانضباط بمقوماته السليمة الا على أساس الاقتناع الذى يولد لدى الفرد «الدافع الذاتى» إلى طاعة الأمر والسلوك سلوكاً سليماً بدون رقيب خارجي حتى فى أصعب الظروف وأشدها قسوة ، فالانضباط الصحيح هو الذى يدفع (على سبيل المثال) الجندى الذى يحمل رسالة لكى يبلغها إلى جهة معينة فى أثناء المعركة إلى اجتياز طريق وعر يتعرض فيه لرصاص العدو او كمائنه ، فلا يعقده هذا الخطر عن تنفيذ مهمته ولو كلفته حياته على الرغم من انه ليس وراءه من يدفعه أو يراقب عمله من قادته أو زملائه . ومن ثم كان توليد الدافع الذاتى نحو الطاعة والسلوك السليم عن طريق الاقتناع هو حجر الزاوية فى بناء الانضباط الصحيح . وذلك لأن الاقناع هو الذى ينشىء «الحالة العقلية» المنشودة . وهذه الحالة العقلية هى التى تحرك السلوك . ومن أجل ذلك تفضل أغلب المدارس العسكرية لفظ «الانضباط الذاتى» بدلاً من «الانضباط» فقط .

● كذلك الحال بالنسبة لتعريف المقاتل بالهدف الذى يقاتل من أجله . وهو ما نعرفه الآن «بالعقيدة القتالية» . فلو درسنا تطور النظريات والمدارس الفكرية الخاصة بالعقيدة القتالية لوجدنا أن النظرية التى كانت سائدة فى الماضى هى ما يطلق عليه «النظرية الجبرية» التى تقول بأن وظيفة الجندى هى الطاعة العمياء للأوامر ، والقتال دون ادنى تفكير أو مناقشة . ولا تؤمن بضرورة اعداد الجندى معنوياً من خلال عقيدة قتال معينة ، ولا بضرورة تفهمه للهدف الذى يحارب من أجله . وهو ما عبر عنه قول فريد ريك الأكبر الذى ذكرناه ... يكفى أن أمرهم حتىٰ يلقوا بأنفسهم فى النار دون تفكير. لأنهم يجهلون كل شيء حتىٰ الغرض الذى يقاتلون من أجله» .

وازاء التطور فى شكل الحرب واسلحتها واساليبها ـ كما ذكرنا ـ أصبحت النظرية الجبرية غير ذات موضوع بعد أن أصبح كل شبر من أرض المعركة يتطلب قدراً كبيراً من الوعى والتصرف والمباداة من الجندى الذي يعمل ـ بسبب ما اقتضته الحرب الحديثة من انتشار ـ بعيداً عن قائده وحتىٰ عن زملائه .

● وهكذا نشأت «نظرية العقيدة» لتحل محل النظرية الجبرية ، وهى تنادى بضرورة اعتناق الجنود لعقيدة محددة تتركز حولها جميع اتجاهاتهم الفكرية وتوحد جهودهم للدفاع عنها وبذلك يصبح انتصار هذه العقيدة هو هدف القتال : ونشأ عن ذلك اصطلاح «المقاتل العقيدى» أى الذى يقاتل عن عقيدة تقدم له الاجابة عن السؤال «لماذا اقاتل ؟» .

وتؤكد نظرية العقيدة «أن العقيدة القتالية هى التى تحرك الجندى ـ بدافع ذاتى ـ إلى الاستبسال فى القتال والتصميم على تحقيق الهدف مهما كانت التضحيات .. وواضح أن هذه النظرية تؤمن «بفردية المقاتل وتحترم شخصيته وتدرك حقيقة أن المقاتل المنتصر هو الذى يدخل المعركة مشبعاً بعقيدة معينة ، ومقتنعاً بالهدف الذى يقاتل من أجله .

تطور الفكر الادارى فى نظرته للانسان :

● ويكشف لنا تطور الفكر الادارى عن أن العنصر الانسانى كان مهملاً أو متجاهلاً فى بداية الأمر ، ففى أوائل القرن العشرين (١٩٠٠ ـ ١٩٢٠) ظهرت ، حركة «الادارة العلمية» . وكان التركيز الأساسى فيها على الجوانب المادية فى العمل والانتاج . وكانت ترى فى تقسيم العمل والتخصص أساساً صالحاً لرفع الانتاجية ، اما «الانسان» فلم يكن فى نظرية الادارة العلمية أكثر من جرد «اداة» للعمل أو مصدر للطاقة تستخدمه الادارة لبلوغ الانتاج المطلوب ولم تكن تلك النظرية تتوقع عائداً هاماً من مساهمة العاملين ومشاركتهم . لذا فقد حددت دورهم فى مجرد تلقى التعليمات وتنفيذها على أساس «طريقة الاداء المثلى» التى تم تدريبهم عليها . ثم أن الحافز الأساسى للعاملين فى هذه النظرية كان هو الحافز النقدى ، (أى المال) .

● وقد ثبت تاريخياً أن مبادىء «حركة الادارة العلمية» التى تجاهلت عنصر الانسان كما رأينا ، سببت كثيراً من المشكلات

العمالية وأثارت موجبات من الاضطرابات الصناعية ، وسرعان ما نشأت حركة «العلاقات الانسانية» (١٩٣٠ ـ ١٩٥٠) التى تنادى بأن «الانسان» هو محور العمل الادارى . وأنه هو العنصر الحاسم فى تحديد الانتاجية . كذلك روجت هذه الحركة لمفاهيم جديدة مثل «الحالة المعنوية» أو «الروح المعنوية» وأثر «الجو الاجتماعى» على معنوية العاملين ومن ثم على انتاجهم ، ومن أهم نتائج حركة العلاقات الانسانية التركيز على تدريب الرؤساء والمديرين والمشرفين على أساس المعاملة الانسانية للعاملين .

● ثم تطور الفكر الادارى فى ادراكه لقيمة العنصر الانسانى إلى الاهتمام بدراسة السلوك الانسانى وتحليله بالطرق العلمية ، ونحن الآن نعيش فى ظل النظرية المسماة «بالمدخل السلوكى» التى تقوم على أن العامل الأساسى المحدد لكفاءة الادارة هو الانسان (بمعنى أدق السلوك الانسانى) ، ثم الافادة من هذه التفسيرات فى التنبوء بأشكال السلوك المتوقعة للأفراد فى مواقع العمل المختلفة . ومن ثم تستطيع الادارة اتخاذ القرارات ، الرشيدة لحل مشكلات العمل وتحقيق أهدافه . وتقرر هذه النظرية الأخذ بمبادىء ومفاهيم عدد من العلوم الانسانية التى تتعلق بسلوك الانسان مثل علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الانسان (الانثروبولوجيا)[١] ويطلق على هذه العلوم الثلاثة «العلوم السلوكية» .

● والأمر الجدير بالذكر أن الذى دفع علماء الادارة إلى الاهتمام

---

(١) يرجع هذا اللفظ إلى أصل يونانى وهو يتألف من مقطعين : (انثروبوس) يعنى انسان . و (لوجيا) يعنى علم . وهو يدرس التكوين الحضارى للانسان بينما يدرس علم النفس تكوينه النفسى . ويدرس علم الاجتماع تكوينه الاجتماعى .

بالانسان ودراسة السلوك الاسنانى أسباب اقتصادية . منها أن المادة والآلة ورأس المال وغيرها من ادوات الانتاج وعناصره . لا قيمة لها الا بالانسان فالعمل الانسانى هو مصدر كل القيم ، فلا بد اذن من معرفة لماذا وكيف يعمل الانسان . وذلك لكى نستطيع أن تجعله يقدم اقصىٰ ما لديه من طاقات مادية ومعنوية لصالح الانتاج والأهداف المقررة . وحيث أن الانسان له ارادة مستقلة ، وكائن يدرك ويفهم ويتعلم ، فلا بد من دراسة أسباب ودوافع السلوك الانسانى حتىٰ يمكن التكهن بهذا السلوك . واتخاذ الاجراءات الضرورية للتأثير عليه .

● مما سبق نرى كيف نشأ الاهتمام بالعنصر الانسانى وبقيمة الانسان فى العصر الحديث . ونرى أن الدوافع إلى هذا الاهتمام فرضها التطور فى الفكر الحربى والفكر الاقتصادى .. وقد نشأت نتيجة لهذا الاهتمام افرع متخصصة من علم النفس كعلم النفس العسكرى وعلم النفس الصناعى وعلم النفس الادارى ومن علم الاجتماع الصناعى إلى غير ذلك . كما انشأت الدول والجيوش المتقدمة الأجهزة المختصة بكل ما يتعلق بالقوة البشرية من توجيه واختيار وتدريب ورعاية انسانية واجتماعية وغيرها . واصبح العامل «المعنوى» يحتل مكاناً هاماً فى التخطيط الاستراتيجى فى كل الجيوش . إذ قد يصبح هو العامل الذى يحكم اصدار القرار ببدء العمليات العسكرية وتأجيلها أو التخلى عنها ، وأضاف العسكريون مبدأ «الروح المعنوية» إلى مبادىء الحرب التى يدرسونها ويسعون إلى تطبيقها . كذلك أصبح «تدمير الروح المعنوية للعدو» من أهم

الأهداف الاستراتيجية التى تسعى الجيوش المتصارعة إلى تحقيقها فنراه تضع الخطط «للضربات» التى تستهدف تدمير المعنويات سواء بالعمليات القتالية أو بالحرب النفسية .

ويعبر المشير مونتجمرى عن أهمية العامل المعنوى فيقول : « إن أعظم عامل من العوامل المؤدية إلى تحقيق النجاح هو روح المقاتل . وانه لأمر جوهرى وهام أن يفهم المرء أن المعارك تكسب أولاً وقبل كل شيء فى قلوب الرجال» . ومن أجل ذلك فان جميع الجيوش تعنى أشد العناية بوضع النظم والأساليب التى تستهدف بناء معنويات رجالها والمحافظة عليها ووقايتها من عوامل الضعف أوالانهيار .

ويضم تنظيم كل الجيوش المتقدمة أجهزة متخصصة فى هذا المجال يعمل فيها الخبراء العسكريون مع علماء النفس وعلماء الاجتماع وأطباء الأمراض العصبية والنفسية والعقلية وغيرهم .

الاسلام واعلاء قيمة الانسان :

● والحق ان ما وصل إليه الفكر العسكرى ـ والفكر الادارى فى عصرنا من تقدير لقيمة الانسان . هو «أمر مبدئى» فى توجيهات الاسلام منذ أربعة عشر قرناً من الزمان . فالاسلام ينظر إلى الانسانية عامة نظرة التكريم والاحترام ويضع من القواعد والأصول والأحكام ما يصون للانسان كرامته وحقوقه فى الحياة . فالعدل والرحمة والمساواة فى الحقوق والواجبات أمور يفرضها الله لجميع الناس ما لم يكن منهم اعتداء أو خروج عن حدود الله .. وكرامة

الانسان حق نوه الله به حيث قال : ﴿**ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**﴾ (الاسـراء ٧٠) . والناس على اختلاف السنتهم والوانهم واماكنهم أسرة كبرى ترجع إلى أصل واحد . فالروابط بينهم يجب أن تكون روابط أخوة تسودها المودة والرحمة والمساواة والعدالة والتعاون على ما فيه سعادة الجميع وسيادته وعزته . كما يفهم من قوله تعالى : ﴿**يآ أيّها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونسآء واتقوا الله الذى تسآءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا**﴾ (النساء ١) وقوله تعالى : ﴿**يآ أيّها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبآئل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير**﴾ (الحجرات ١٣) .

ومن ثم كان القياس الذى يتفاضل به الناس أمراً آخر وراء اختلاف الألوان والألسنة والمواطن ، وهو التقوى ﴿**إن اكرمكم عند الله اتقاكم**﴾ أو كما يقول الرسول ﷺ : ليس لعربى على عجمى ولا لأبيض على اسود فضل الا بالتقوى .

● وقد قرر الاسلام مبدأ الحرية والكرامة الانسانية وحرر شخصية المسلم من العبودية لغير الله تعالى فى كل ميدان من الميادين وإذا كان الاسلام ثورة اجتماعية غيرت مجرى التاريخ البشرى ، فان فلسفة التغيير هذه لم يقمها الرسول محمد ﷺ أو أحد الخلفاء الراشدين من بعده على انقاض الحرية الفردية أو التضحية بها فى أية صورة من صورها ولذا نراه ــ مع حرصه الشديد على أن يدخل

الناس فى الدين افواجا ـ لا يضرب على ايديهم ، ولا يسوقهم نحو الايمان سوقا ، لأن الاسلام يريد بالتغيير الذى نادى به وعمل على تحقيقه أن يصنع رجالاً ابطالاً ، ونماذج تستطيع أن تحمل مشاعل الفكر وتنير طريق الحرية . والذين يساقون ، لا يمكنهم يوماً من الأيام أن يكونوا قادة فكر ، ولا ابطال جهاد ، وكيف لفاقد الشيء أن يعطيه .

وهذا هو السر فى أن الاسلام فى جهاده لتغيير العقيدة وارساء دعائم التوحيد إنما كان يتحرك من خلال اطار عام يحمى الحرية ويصونها وتمثله الآية الكريمة : ﴿**لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى**﴾ وباسلوب الاقناع والمجادلة بالتى هى احسن كما فى قوله تعالىٰ : ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن**﴾ (النحل ١٢٥) .

كذلك قرر الاسلام مبدأ الحرية فى النفس والمال والعرض . فنفس الانسان فى الاسلام معصومة ، لا يجوز الاعتداء عليها أو النيل منها وكذلك مال الانسان معصوم لا يؤخذ منه شيء الا بحقه ، وكذلك عرض الانسان لا يهان ولا يخدش . كما يقول عليه الصلاة والسلام : «كل المسلم على المسلم حرام .. دمه وماله وعرضه» .

● ولو أردنا التركيز على النواحى العسكرية لرأينا ادلة متعددة على تقدير العسكرية الاسلامية لقيمة الانسان نعرض بعضها فى ايجاز .

١ ـ الانضباط الذاتى :

إن الأساس الأول فى بناء الانضباط فى الاسلام هو الحرية والكرامة الانسانية وهو ما يستبين مما ذكرناه عن تكريم الاسلام للانسان واعلائه لقمته وتحريره لشخصية المسلم من كل أشكال العبودية لغير الله تعالى . «فالطاعة» التى هى أهم دعائم الانضباط يأمر بها الاسلام ويوضح فلسفتها ومغزاها الاجتماعى . فليست الطاعة «خضوعاً للسلطة» بل هى «ضرورة اجتماعية» لصالح الجماعة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالقيادة التى هى الأخرى « ضرورة اجتماعية لصالح الجماعة . يقول الله تعالى **﴿واطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الأمر منكم﴾** واولوا الأمر هم الذين ائتمنهم الله على من هم فى رعايتهم ممن هم دونهم فى الرتبة ، ويقول جل شأنه : **﴿ومن يطع الله والرسول فأولّئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهدآء والصالحين وحسن اولّئك رفيقا﴾** (النساء ٦٩) ويوضح الرسول عليه الصلاة والسلام ضرورة القيادة لصالح الجماعة فيقول : «**إذا خرج ثلاثة فى سفر فيؤمروا احدهم**» كما يأمر بالطاعة فيقول : «**اسمعوا واطيعوا وان ولى عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة**» .

لكن الطاعة التى يريدها الاسلام ليست «عمياء» بل هى الطاعة الواعية البصيرة «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق» .

وإذا كان المفكرون قد اختاروا اخيراً اصطلاح «الانضباط الذاتى» لكى يعبر عن الدوافع الذاتية للطاعة والسلوك الصحيح

دون حاجة إلى رقيب خارجي ، فان هذا هو النمط الذى قرره الاسلام . فقد عنى الاسلام بتكوين الضمير الدينى للمسلم بحيث يندفع إلى اداء واجبه على أكمل وجه معتمداً على قوة ذاتية داخل نفسه لا على قوة أو سلطة خارجية . فالضمير الدينى للمسلم هو الذى يمنحه القدرة على حسن السلوك والجدية فى التفكير والعمل الفعال والتصرف فى مواجهة المواقف ، وهو الذى يدفعه إلى أن يرعى الله فى عمله لأنه هو الرقيب المطلع ، ويصوره لنا الرسول الكريم ﷺ فى العبادة فيقول : «**ان تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك**» .

● ومن عجيب صنع القرآن الكريم فى تربية هذا الوازع الدينى الخلقى ، انه لم يجعل نتيجة الخوف أمراً سلبياً وهو النجاة من العقوبة وعدم التعرض للعذاب ، بل جعل الثواب الجزيل والأجر العظيم وذلك ما يفهم من قول الله تعالىٰ : ﴿**وأما من خاف مقام ربه ونهىٰ النفس عن الهوى . فان الجنة هى المأوى**﴾ (النازعات ٤٠) ـ ﴿**ولمن خاف مقام ربه جنتان**﴾ (الرحمن ٤٦) ومثل هذا قد نراه فى حديث القرآن الكريم عن الخشية . كقوله عز من قائل : .. ﴿**إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة واجر كبير**﴾ فجمع لهم بين المغفرة والأجر العظيم . ولكن لا عجب فى ذلك ولا غرابة فالخوف من الله إذا جاء على وجهه ، واثمر ثمرته ، كان أساسا للايمان واليقين . وكان دافعاً إلى اتيان الأوامر واجتناب النواهى .

● وعى الاسلام أيضاً بتربية المسلمين على تقدير المسئولية والاخلاص فى العمل وهى من مقومات الانضباط الذاتى» ، فقد

جاء العمل الصالح فى القرآن الكريم مقروناً بالايمان حتىٰ تكررت فيه عبارة ﴿**الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ عشرات المرات . ويقول النبى ﷺ : «**ليس الايمان بالتحلى أو بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل**» أى ليس الايمان بالكلام الحلو الذى تظهره بلسانك فقط أو بتمنى حصول الأمر المرغوب فيه ، ولكن يجب أن تكون هناك معرفة القلب العميقة لهذا القول وتصديقه بالعمل الطيب الصالح ، واذا اتسعت مسافة الخلف بين المعرفة والتصرف وبين القول والعمل ، فيحق وعيد الله : ﴿**ياأيُّها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون**﴾ (الصف ٢ ــ ٣) .

وفى الحديث الشريف : «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**» تجسيد لمسئوليته الانسان فى عمله ورعاية من هم تحت رعايته . ويدعو الرسول ﷺ إلى الصدق والاخلاص فى العمل حين يقول : «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه**» وامتدح الله الصادقين والأوفياء فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿**من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه**﴾ وفى قوله : ﴿**واوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا**﴾ ويدعو الرسول ﷺ إلى أن يكون العمل خالصاً لوجه الله وابتغاءً لمرضاته وليس ابتغاء ثناء الناس فيقول «**إن الله لا يقبل من العمل الا ما كان له خالصاً وابتغى به وجهه**» .

● **ولا يكتفى الاسلام ببناء الانضباط على الأساس العقلى العميق فحسب ، بل يعنى أيضاً بالتدريب العملى عليه حتىٰ يصبح لدى الفرد عادة وسجية ولذلك نرى الاسلام يعنى بالتربية السلوكية**

فى عباداته لكى يغرس فى الفرد عادة السلوك السليم وينميها حتى تصبح جزءاً من كيانه لا يتخلى عنها أمام أى ظرف من الظروف .

فالصلاة لا يمنع من ادائها مرض أو دخول فى معركة ، لأنها ذكر الله وقد أمرنا أن نذكر الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبنا ، فاذا نادى المؤذن : «حىّ على الصلاة» لبى المسلمون دون حاجة إلى من يرغمهم لأنها صارت عادة . وفى أثناء الصلاة يتعلم المسلمون تسوية الصفوف حيث جعلت هذه التسوية من تمام الصلاة ، ويتقدم الامام صفوف المصلين . ولا دخول فى الصلاة الا بدخوله ، ولا ركوع الا بركوعه ولا سجود الا بسجوده ، ولا سلام بسلامه ، والا بطلت صلاتهم ـ ويتكرر هذا ـ المظهر كل يوم خمس مرات وفى كل مرة يتأكد الشعور بالانضباط .

كذلك فريضة الصيام تعودنا على الانضباط النابع من داخل الذات وليس من خارجها ، فالصيام والامساك فى رمضان عن المشتهيات ، وضبط النفس عن متطلباتها والصمود أمام هذه المتطلبات بحزم وعزم واصرار من فجر كل يوم إلى غروب شمسه ومن أول يوم فى رمضان إلى آخر يوم فيه . هو نوع من التدريب على الانضباط الذاتى وامتحان قاس لعزيمة الانسان وقوة ارادته ومبلغ استعداده للصمود والتضحية من أجل عقيدته ومبادئه واهدافه العليا وغاياته السامية . فاذا ما اذن المؤمن معلناً بزوغ الفجر امتنع المسلمون عن طعامهم وشرابهم «ذاتياً» لأن قلوبهم وعقولهم قد ذاقت حلاوة الايمان فدفعتهم إلى المسارعة فى تنفيذ أوامر الله ثم يأكل الجميع وقت النداء بأن الشمس قد غابت وحان موعد

الافطار . وهكذا يكون الصيام بأمر واحد ، وفى وقت واحد ونهاية واحدة .. وفى الزكاة طاعة لله باخراج الجزء الواجب اخراجه بلا رقابة من أحد والقلدر المحدد . وفى الحج يقف المسلمون جميعاً دون مخالفة فى مكان واحد هو جبل عرفات وبدونه لا يكون حجاً . فالجميع فى وقت واحد وزى واحد وتلبية واحدة هى هتاف واحد الهى رائع : «لبيك اللهم لبيك» .

٢ ـ العقيدة القتالية :

● وإذا كانت «النظرية الجبرية» فى دفع المحاربين إلى القتال هى النظرية التى سادت فى الحروب قديماً وظلت سائدة إلى عهد قريب حتى ظهرت الاسلحة الحديثة فتحولت الأمم عنها إلى نظرية تعتمد على غرس الدوافع الذاتية فى نفوس المحاربين ، فان الاسلام قد قرر منذ أربعة عشر قرناً نظرية الدوافع التى تحرك الانسان عن إيمان واقتناع وليس عن جبر أو قسر لأن الحرية والاختبار والاقناع من اصول الدعوة الاسلامية . فعقيدة «الجهاد فى سبيل الله» تتناول شخصية المجاهد وتكوينه النفسى والوجدانى وسلوكه الاجتماعى وتنمى لديه الاتجاهات النفسية الايجابية التى تحركه ـ ذاتياً ـ نحو الاستبسال فى القتال فى سبيل الحق واعلاء كلمة الله .

● فالمسلم المجاهد يدرء بفطرته السليمة تكريم المولى سبحانه وتعالى له «باختياره» لأشرف مهمة وهى الجهاد فى سبيل الله كما فى قوله تعالى : ﴿**وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم**﴾ (الحج ٧٨) «اجتباكم يعنى اختاركم» .

وهو كذلك يدرك مغزى هذا الاختيار وما ينطوى عليه من التزام إذ أن هناك فرقاً كبيراً بين أن تقول شخص ما : «مهمتك هى كذا ..» وبين أن تقول له : «مهمتك كذا . وأنا اخترتك لأدائها» ، فالقول الثانى ينطوى على معانى الثقة والأمل والتكريم وكلها من أعظم الحوافز المعنوية ، كما يترتب على الاختيار التزام المكلف بالعمل بأن يكون عند حسن الظن به ، وأن يثبت عملياً أنه جدير بالثقة التى وضعت فيه وأهل للتكريم الذى ناله . وقادر على تحقيق الأمل المعقود علي

● وإذا كانت الدول عند صياغتها للعقيدة القتالية لجيوشها تربط هذه العقيدة بأهدافها السياسية فهى لا تتسامى إلى عقيدة الجهاد المرتبطة بالدين الحنيف ، وهذا الارتباط بالدين يميزها بالثبات والاستقرار ، لأن الدين أثبت وأدوم من السياسة وبالنبل والشرف والعدل فى الغاية والوسيلة لأن السياسة غالباً ما تخضع للأهواء ، والمطامع والمصالح ، ثم ان هذه العقيدة النابعة من الدين تولد اقوى الدوافع على الاطلاق ، حيث يجد فيها المجاهد الوسيلة إلى الظفر بمرضاة الله وإلى دخول جنة عرضها السموات والأرض .

انظر إلى كل الدول تجدها مثلاً تعمل على تنمية دافع الوطنية فى نفوس ابنائها منذ نعومة أظافرهم لكى يقف الجندى مدافعاً عن وطنه المهدد بالخطر ممتلىء النفس بالعاطفة الوطنية ومستعداً للتضحية بالروح فى سبيله .

لكن .. ما «الوطنية» إلى جانب «اعلاء كلمة الله» ؟ ..

إذا كانت النفس يزيدها حب الوطن قوة بمقدار ما فى الوطن

كله من قوة ، فما أكثر ما يزيدها الايمان بالوجود كله ، وبخالق الوجود كله .. من قوة ؟!

٣ـ الشورى وصنع القرار :

● وتنطوى قاعدة الشورى فى الاسلام على تكريم للانسان واعلاء قيمته فضلاً عما فيها من خير ومصلحة لجماعة المسلمين . فلقد أمر الله تعالى رسوله بأن يشاور اصحابه فقال : ﴿**فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين**﴾ (آل عمران ١٥٩) .

كما ورد ذكر الشورى فى القرآن بين الصلاة والانفاق لأهميتها وخطرها كما فى قوله تعالى : ﴿**والذين استجابوا لربهم واقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون**﴾ (الشورى ٣٨) .

● ولم تكن «الشورى» وأمر الرسول ﷺ بها ـ وهو الذى يتنزل عليه الوحى ـ الا تعليما لهذه الأمة واعلاناً بأن فى تحقيق مبدأ الشورى من الفضل والخير ما يؤمن معه العثار ، ويحفظ الأمة من الزلل كما أنه شيمة العقلاء ومنهج الحكماء . ومن أحاديث الرسول ﷺ :

«ما ندم من استشار» .. «ما شقى عبد بمشورة ، وما سعد باستغناء رأى» .

وقد جرت سنته عليه الصلاة والسلام على تطبيق مبدأ الشورى

فى كل الأمور الحربية وغير الحربية حتىٰ قال عنه أبوهريرة رضى الله عنه : «ما رأيت أحداً قط كان أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ .» .



جوهر عملية اعداد المقاتل

علم نفس المعركة :

يتطلب فهم أهداف وجوهر عملية اعداد المقاتل أن نتعرض قليلا لما يسمى بعلم نفس المعركة ، لكى نتعرف على ما يواجهه الانسان (البشر) ـ وهو يتعرض لاخطر تجربة وهى القتال ـ من مواقف وتحديات ، وعلى آثار تلك المواقف والتحديات على نفسه ثم على كفاءته القتالية ..

فالواقع أن المقاتل يتعرض فى المعركة ـ وحتى قبل أن تبدأ ـ للتوتر العصبى وعوامل الخوف والقلق كالخوف من التعرض للاصابة أو الوقوع فى الأسر أو الحصار ، والخوف من الموت . والقلق على الاسرة . كما يتعرض أيضا لحالات التعب والأرهاق وقلة النوم . وحالات الملل والضجر ، وللصراع النفسى الذى يدور بداخله بين الدوافع المتعارضة مثل دافع حب البقاء ودافع اداء الواجب . كما يتعرض المقاتل أيضا لحالة (الذعر) التى تنشأ من تأثير الخوف الشديد أو صدمة الموقف المفاجئ ..

هذه العوامل تشكل ضغوطا نفسية شديدة على المقاتلين جميعا ، ولكن مدى الاستجابة لها والتأثر بها وتحملها ، يختلف من مقاتل لآخر تبعا لعدة عوامل مثل تركيبه النفسى ومستوى تدريبه وروحه المعنوية وقدرة قياداته وكفاءتها إلى غير ذلك من العوامل .

فإذا لم يصمد المقاتل أمام تلك العوامل ، فإن كفاءته فى القتال تضعف ، كما تضعف روحه المعنوية . وقد يصل الامر إلى التوقف عن القتال أو الفرار من الميدان أو التعرض للاضطرابات العصبية والنفسية[1] التى يسميها علماء النفس (عصاب الحرب) والتى تعطل تفكيره وتعطله عن القتال ، أو قد تجعله غير صالح للقتال نهائيا ..

أخطر تحديات المعركة :

ولعل اخطر التحديات التى يواجهها المقاتل فى المعركة هو (**الخوف من الموت والذعر**) . فالمقاتل . يتواجد فى نفسه صراع دائم بين دافع غريزة حب البقاء وبين دافع الوفاء بالواجب الملقى على عاتقه ، وموقف المقاتل ازاء هذا الصراع يكون واحدا من الاحتمالات التالية :

الاول : أن يتغلب الدافع الاول (حب البقاء) . فنرى المقاتل وقد تدهورت قواه ، وضعفت كفاءته القتالية والمعنوية وقد يستسلم أو يفر من الميدان .

والثانى : أن يتغلب الدافع الثانى (الوفاء بالواجب) ، فنراه يحارب بشجاعة واستبسال ولا يبالى بالموت .

والثالث : ألا ينتهى الصراع بين الدافعين الى تغلب احدهما على الآخر . أى أن يقف المقاتل (فى مفترق الطرق) : يمنعه حب البقاء من التقدم ، ويمنعه ضميره من الفرار ، ولا يتخذ لنفسه امام

---

(١) مثل الهستيريا والقلق والوساوس والأمراض النفسية الجسدية (السيكوسوماتية) .

هذين الدافعين اللذين يتنازعانه موقفا ايجابيا حاسما ينهى به هذا الصراع .. عند ذلك ، يقع المقاتل فريسة للاضطرابات العصبية والنفسية (عصاب الحرب) كما قدمناه .

وبطبيعة الحال ، فإن المقاتلين يختلفون من حيث استعدادهم للوقوع فى مثل تلك الاضطرابات بحسب استعداداتهم النفسية والجسمية والعقلية ، وتبعا للتنشئة الاجتماعية والتربية منذ مرحلة الطفولة ، ولدرجة اعدادهم للقتال ماديا ومعنويا .

من تجارب الحروب :

والدول المتقدمة تُخضع المعركة وظروفها وآثارها على الرجال للتحليل والبحث العلمى وتستخلص من ذلك ما يعينها على اعداد مقاتليها لمواجهة تحديات المعارك ، دون أن يتعرضوا للاضطرابات العصبية والنفسية .

ومن هذه الابحاث ما اجراه البرت . ج . جلاس فى الولايات المتحدة الامريكية حول الخطر المفاجئ وآثاره ، فوجد ان الافراد ينقسمون إلى فئتين :

الفئة الاولى : وتبلغ من ١٥ إلى ٢٥ بالمائة منهم يستطيعون الاحتفاظ بقواهم النفسية والعقلية . ويملكون القدرة على التصرف الايجابى السريع على الرغم من احساسهم بالخطر واستمراره ، على انه قد يتعرض كثير من هؤلاء إلى أن تخور عزائمهم بعد زوال الخطر .

والفئة الثانية : من ٧٥ إلى ٨٥ بالمائة . يصابون بالذهول والارتباك فى مواجهة الخطر المفاجئ . وقد يقبعون فى اماكنهم ، أو

يلوذون بالفرار دون أن يعوا ما يفعلون .

ويقول الجنرال (فولر) ـ مستندا إلى تجربة الترانسفال والحربين العالميتين : « يمسك الخوف بتلابيب نصف الرجال الذين يتقدمون اثناء الهجوم ، ويشل حركة النصف الثانى » .

ويقول الجنرال (مارشال) فى كتابه (الرجال والاسلحة) : « لم تستخدم وحدات المشاة الامريكية اثناء الحرب العالمية الثانية قوة نيرانها بصورة كافية ، لأن معظم جنود المشاة لم يكونوا يستعملون اسلحتهم ، إن اكثر من نصف الجنود لم يطلق طلقة واحدة ببندقيته » .

خطر انتشار الخوف والذعر :

والامر الجدير بالذكر أَنَّ الخوف أو الذعر ، إذا سيطر على المقاتل فى المعركة فإن آثاره لا تقف عنده وحده ، بل قد تمتد إلى غيره من المقاتلين ..

فالخوف كالامراض المعدية التى تنتقل من المريض إلى الآخرين ، وهنا تكمن خطورة الخوف . لأن آثاره تمتد إلى نتيجة المعركة ومصير الجيش والامة ..

وتاريخ الحروب حافل بالمواقف التى تبرهن على خطر انتشار الخوف أو الذعر وآثاره المهلكة ، فمن ذلك مثلا ان قوة كبيرة تركت مواقعها فى المعركة فى صورة من الذعر والفوضى على أثر سماعها صيحة مذعورة اطلقها احد رجالها قائلا :

(الاعداء قادمون) .. ولم يكن هناك فى الحقيقة (اعداء قادمون) ولا غيرهم ، وحقيقة الأمر أن ذلك الجندى كان متكئا

بعد الغروب ، فخيل إليه انه رأى اشباحا مقبلة عليه . فقفز مذعورا وصاح تلك الصيحة المدمرة .

مـن يستطيع تحمل اخطار المعركة ؟

ولعل أهم ما نستخلصه من دراسة (علم نفس المعركة) أن الحرب ـ أولا واخيرا ـ معاناة قاسية لا يتحملها إلا « الانسان الصحيح نفسيا وعقليا وجسميا » ..

وهذه المجالات الثلاثة للصحة يكمل بعضها بعضا . فالعلة الجسمية تؤثر فى الغالب على الناحيتين العقلية والنفسية ، والعلة العقلية تؤثر فى الجسم والنفس ، والعلة النفسية تؤثر فى الجسم والعقل وتعطل التفكير.

وعملا بقاعدة : « إذا صلح الاساس ، صلح البناء » فإن عملية اعداد المقاتل الصحيح الذى يستطيع تحمل معاناة الحرب القاسية . لا تنحصر فى الاطار العسكرى أى فى مرحلة الخدمة العسكرية ، بل تتجاوزه رجوعا إلى مراحل التربية الاساسية منذ الطفولة ، وإلى اساليب التنشئة الاجتماعية وغيرها من مراحل واساليب (بناء الشخصية) اصلا ..

المنهج الاســلامى :

هنا تبرز عظمة المنهج الاسلامى فى بناء الشخصية بمبادئه القويمة واساليبه الرفيعة التى لا تتسامى اليها النظم الوضعية التى تنتجها عقول البشر. فلقد رسم الاسلام الطريق الصحيح لبناء الانسان

وبناء شخصيته وضميره وعقله وتفكيره وسلوكه . حتى يكون انسانا « صحيح الجسم والعقل والنفس » .. وإذا كان خبراء الحرب وعلماء النفس قد اجمعوا على اهمية فترة التربية والتنشئة منذ الطفولة وعلى أثرها فى بناء شخصية المقاتل ، الامر الذى جعل الجنرال (مارشال) فى كتابه (الجنود فى مواجهة النيران) يقول :

« إذا رغبنا فى الحصول على الجندى الصالح فيجب أن تتجه انظارنا إلى مهد الطفل عندما تنشئه أمه ليكون رجلا ، وإلى المدرسة حيث يتعلم كيف يضحى بمصالحه الشخصية من أجل الوطن . وفى أروقة الحكومة حيث ينبثق فى قلوب الشعب الوعى الصادق عن الواجب »

إذا كان هذا هو ما اجمع عليه الخبراء والعلماء والقادة . فإن الاسلام قد جعله أمرا مبدئيا فى منهجه فى التربية :

فالاسلام يبنى شخصية المسلم لتكون (شخصية سوية) وليجعل منه لبنة قوية متماسكة وعنصرا ايجابيا صالحا فى مجتمعه الكبير . ومقاتلا لا يقهر فى الحرب دفاعا عن الدين واعلاء لكلمة الله .

والاسلام يبنى المجتمع الانسانى الفاضل الذى يهىء للمسلم المناخ الصالح للتنشئة السليمة والتربية القويمة . كما يهىء له الفرص التى تتيح له اظهار طاقاته المدخرة فيه .

والمقام لا يتسع لعرض منهج الاسلام فى التربية . وإنما نكتفى ببعض الاسس ذات الصلة المباشرة ببناء شخصية المقاتل وبناء قدرته على قهر تحديات المعركة .

أولا : اسلام الوجـه لله :

إن جوهر الشخصية الاسلامية . هو : « إسلام الوجه لله » :

ومعنى « اسلام الوجه لله » قد فسره الله سبحانه حينما وضع ذروته ممثلة فى شخص الرسول ﷺ إذ يقول :

﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ (الانعام : ١٦٢ ، ١٦٣) .

ولعل أول آية نزلت من القرآن الكريم تشير إلى هذا المعنى . وكانت بذلك توجيها من أول الأمر إلى أن يكون العمل باسم الله لا باسم شئ آخر أو كائن آخر :

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ (العلق : ١)

واسلام الوجه لله يكون فى « العقيدة » بالايمان بوحدانية الله ، ويكون فى « الاخلاق » بأن يتخلق الانسان بالاخلاق التى أمر الله بها :

- **التوحيد فى العقيدة :**

ليس التوحيد مجرد كلمة تقال ولا أساس لها فى القلب والشعور .. بل إن المسلم الصحيح يؤمن بالتوحيد ايمانا يملك عليه جميع اقطاره ، ويتغلغل فى جميع انحاء شعوره ووجدانه . ويغمر قلبه ونفسه . ويكيف جسمه ، ويوجهه الوجهة السليمة .

والقرآن الكريم يعرض الاسلام فى جوهره واساسه فى قوله تعالى آمرا رسوله الكريم :

﴿ قل إنَّما يوحى إلى إنما الهكم إله واحد فهل انتم مسلمون ﴾ (الانبياء : ١٠٨) وفى أمره تعالى لنبيه ﷺ فى خطابه مع أهل الكتاب

ان يقول لهم : ﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سوآء بيننا وبينكم الا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانًا مسلمون** ﴾ (آل عمران : ٦٤) .

ويبين الله سبحانه جوهر التدين فى قوله تعالى : ﴿ **ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن** ﴾ (النساء : ١٢٥) .

ومن أجل ايجاد الانسان الموحد فى صورة واقعية كانت أركان الاسلام .

١ ـ **اشهد الَّا إله إلا الله** : انها رسالة السماء الخالدة .

اشهد ان محمدا رسول الله : الذى بلغ الرسالة فأدى بهذا التبليغ الصادق الامانة التى وكلت اليه وهى التوحيد .

ومن هنا كان بدؤها (الله أكبر) لتشعر الانسان من المبدأ أن جميع مافى العالم من مادة ومن بشر تتعلق بهم الآمال أو يناط بهم الرجاء . فإن الله أكبر منهم ، واجل واعظم . فيجب أن تتعلق الآمال به وحده .. وان يقتصر الرجاء عليه سبحانه .

ثم تتوالى لجميع الاوضاع فى الصلاة ، من قراءة وركوع وسجود وتشهد ، لتعلن بكل حركة وبكل وضع ، الانفصال عما سوى الله من أجل الاتجاه إلى الله وحده ومن أجل اسلام الوجه اليه سبحانه .

٢ ـ **والصوم** : إنما هو تنزه عن المادة . وعن السوء فى القول والعمل فترة من الزمن من أجل مرضاة الله ، انه تنزه عن النقص فى سبيل التوحيد .

٣ ـ **والزكاة** : إنما هى بذل المادة فى سبيل الله ، تلك المادة التى يجرى وراءها البشر ويكادون يعبدونها . بذلها بعد امتلاكها .. انها تجرد عن المادة توحيدا لله سبحانه .

٤ ـ **وأما الحج** : فانه تجريد كله ، انه تجرد روحى عن الماضى ، فى مبدئه توبة عن الذنوب ، والآثام أى عن الفترات التى غفل الانسان فيها عن ذكر الله ، وهو تجرد حتى عن ملابس الماضى ، وهو تلبية من أول لحظاته : تلبية هى استجابة لله وحده ، أو هى توحيد خالص ، انها استجابة كاملة للأمر بنفى الشريك .

« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » .

٥ ـ **التوحيد فى الاخلاق** :

اما التوحيد فى الاخلاق ، فمعالمه انه لا يصدر الانسان فى سلوكه الشخصى أو سلوكه الاجتماعى إلا عن توجيه إلهى . وان يتخلق بالاخلاق التى أمر الله بها ، وان يكون فى كل ما يأتى وما يدع قاصدا وجه الله تعالى ، وان تكون صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين لا شريك له .

ثانيا : تحرير شخصية المسلم من خوف الموت :

ومن الاسس التى لها صلة مباشرة ببناء المقاتل فى منهج الاسلام فى بناء الشخصية ، تحرير شخصية المسلم من خوف الموت .. وهو اخطر التحديات التى تواجه المقاتل فى المعركة كما قدمنا .

ان الانسانية فى مختلف ازمنتها وامكنتها تخاف الموت وتخشاه .

وهذا يقودها إلى الاستبعاد للاقوياء ، ويصيبها بالقلق والاضطراب والجبن فى مواجهة الاخطار ، ويحاول المفكرون والقادة ـ فى مجال اعداد المقاتل ـ بكل الوسائل المعنوية والمادية أن يُنَمُّوا فى المقاتل بعض القدرة على التغلب على الخوف أو التخفيف من آثاره .

لكن الاسلام له موقف آخر .. إنه (يحرر) شخصية المسلم من خوف الموت لأنه أمر لا يتمشى مع عقيدة التوحيد .. فإن مالك الملك انما هو وحده الذى يملك الموت والحياة ، وهو الذى قدر الآجال . ﴿**فإذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون**﴾ فيدرك المسلم ان الحرص على الحياة أو الجبن ليس من اسباب إطالة الاجل ، كما أن الشجاعة والاقدام ليسا من أسباب تقصير الاجل ، وقد بين الله تعالى ذلك فى كتابه الكريم إبانة تامة :

ـ ﴿**كل نفس ذائقة الموت**﴾ (آل عمران : ١٨٥)

ـ ﴿ **اينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة** ﴾ (النساء : ٧٨)

ـ ﴿ **ولكل امة أجل فإذا جآء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** ﴾ (الاعراف : ٣٤)

ـ ﴿ **وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا** ﴾ (آل عمران : ١٤٥)

ـ اما هؤلاء الذين قالوا : ﴿ **لو كان لنا من الامر شئ ما قتلنا هاهنا** ﴾ فإن الله سبحانه يرد عليهم : ﴿ **قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم** ﴾ (آل عمران : ١٥٤)

ـ وهؤلاء الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا : ﴿ **لو اطاعونا ما قتلوا** ﴾

فإن الله سبحانه وتعالى يأمر رسول الله ﷺ أن يرد عليهم قائلا :
﴿ **فادرءوا عن انفسكم الموت إن كنتم صادقين** ﴾ (آل عمران . ١٦٨) ..
ـ اما الذين يفرون امام اعداء الله فهؤلاء : ﴿ **انما استنزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا** ﴾ (آل عمران : ١٥٥) .

فالمؤمن الصادق الايمان لا يعرف الجبن ، ولا يستنزله الشيطان موسوسا له بالخوف من غير الله تعالى .. ومن اعظم ما يروى فى هذا المقام انه فى غزوة احد ، وبعد أن أحاط المشركون بالمسلمين من كل جانب ، التف حول الرسول ﷺ نفر قليل من المسلمين يدافعون عنه .. وفى ذلك الموقف العصيب بايع الرسول على الموت ثمانية هم : على والزبير وطلحة وابودجانة والحارث بن الصمة والحباب بن المنذر وعاصم بن ثابت وسهل بن حنيف ، ووقفوا يفدونه بانفسهم ويقاتلون دونه ويتلقون السهام والطعنات والرماح والسيوف باجسادهم ومع ذلك فلم يستطع المشركون ان يقتلوا منهم واحدا ، وعاشوا جميعا .. ﴿ **وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا** ﴾ (آل عمران : ١٤٥) .

ثالثا : الاستشهاد شرف وأمل :

والحق ان المسلم الذى تربى على منهج الاسلام لا يهاب الموت فحسب ، بل انه يعد الاستشهاد فى المعركة شرفا يسعى اليه ، وأملا تتطلع نفسه إلى بلوغه .

ان المجاهد فى سبيل الله يضع نصب عينيه احد أمرين اما النصر واما الشهادة . وذلك ما يفهم من قول الله تعالى :

﴿ فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيُقتل أو يغلب فسوف نؤتيه اجرا عظيما ﴾

(النساء : ٧٤) .

● والمتأمل فى المقابلة بين (يُقتل) و (يغَلب) فى الآية الكريمة قد يتساءل : لماذا لم يقل المولى جلت حكمته فيغلب (بفتح الياء) أو يغلب (بضم الياء) ؟ لان المقاتل إما أن يكون غالبا أو مغلوبا .

ويمكن الاجابة على ذلك بأن المجاهد المؤمن لا يُغلب ابدا (أى لا يقهر) وذلك لانه ينتظر احدى الحسنيين ولا ثالث لهما فيما يقدره من نتائج لأنه فائز فى كل من النصر أو الشهادة غير مغلوب .

● وكذلك يلاحظ المتأمل فى هذه الآية الكريمة انه قدّم فيها القتل على الغلب (فيقتل أو يغلب) وفى هذا تحريض للمجاهدين على الاقدام واسترخاص النفوس فى سبيل الله ، بل فيه اغراء بالاستشهاد ، واشعار بأن شرفه اعظم واكرم من شرف النصر .

● كذلك يستشف من هذه الآية أن المقاتل المجاهد لا يكف عن قتال العدو حتى يكتب له النصر. فإذا لم يتحقق ، فالمعركة مستمرة ، ما لم تزهق روحه ويقع سلاحه .

● كما يفهم ايضا ان المجاهد الصادق الذى يعد العدة الكافية ، ويتبع سنن الله فى الارض . لا يمكن أن يغلب ، لأن الله تعالى فى هذه الحالة يكون معه . ولأنه وعده بالنصر ، ووعد الله لا يتخلف . وقد قال جل شأنه : **﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾** .

ولقد فهم المسلمون الاوائل هذه المعانى الرفيعة وعمرت بها قلوبهم . حتى صارت هذه الشهادة املا وشرفا ومطلبا . وذلك من

اعظم ما ينفرد به منهج الاسلام فى بناء الشخصية .

إن انس بن مالك عندما شعر بسن الرمح يخترق ظهره قال : (فُزت ورب الكعبة) ، وكان الشهيد يردد وهو يحتضر قول الله تعالى : ﴿ **وعجلت اليك رب لترضى** ﴾ ، وكان جاره فى الصف يقول له : « هنيئا لك الشهادة » .. ومن ذلك أن اخوين كان على احدهما أن يخرج للقتال ويبقى الآخر فى المدينة لظروف تحتم بقاءه ، فاختلفان : لا لأن كلا منهما يريد أن يبقى ، بل لأن كلا منهما كان يريد الخروج للقتال ، فيقول للآخر الذى يدعوه للبقاء : «أتريد أن تخرج لكى تظفر بالشهادة دونى» ؟!

وقد عبر خالد بن الوليد عن هذا المعنى الرفيع حين كتب إلى قائد جيش الاعداء الذى غرته كثرة جنده فاستهان بجيش المسلمين ودعاهم إلى الاستسلام : « لقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

شهادة التاريخ :

ولقد اثبت التاريخ ان المقاتل المسلم الذى تربى على منهج الاسلام مقاتل من طراز فريد لا ترقى إلى بلوغه اعظم الاساليب التى قررتها عقول القادة والمربين فى كل زمان ومكان ، وسجلات المعارك الاسلامية حافلة بما لا يحصى من الادلة والبراهين على أن المقاتل المسلم تجتمع لديه كل السجايا والفضائل الحربية التى تجعله مقاتلا لا يقهر ..

وهذا هو السر فى التحول الكبير الذى حدث للعرب بعد

الاسلام :

فلقد كانت للعرب قبل الاسلام خبرة طويلة بالحرب ، لكنهم لم يحققوا ما حققوه بعد الاسلام من فتوحات امتدت فى أقل من مائة عام من حدود الصين شرقا إلى المحيط الاطلسى غربا .

ثم ان النبى ﷺ فى قتاله دفاعا عن الدين كان يحارب عربا بعرب . بل قرشيين بقرشيين . فكان المسلمون ينتصرون رغم تفوق اعدائهم .

إن النتيجة المنطقية التى تستخلص من ذلك هى أن الاسلام هو سر ذلك التحول العظيم الذى حدث للعرب حتى صارت اليهم مقادة العالم ، ووصلوا إلى القمة التى لم تصل اليها أمة ، وحققوا بجهودهم وجهادهم وسمو اخلاقهم قول الله فيهم : ﴿**كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾ (آل عمران : ١١٠) .

مدرسة القيادة الإسلامية

علم نفس المعركة :

يتطلب فهم أهداف وجوهر عملية اعداد المقاتل أن نتعرض قليلا لما يسمى بعلم نفس المعركة ، لكى نتعرف على ما يواجهه الانسان (البشر) ـ وهو يتعرض لاخطر تجربة وهى القتال ـ من مواقف وتحديات ، وعلى آثار تلك المواقف والتحديات على نفسه ثم على كفاءته القتالية ..

فالواقع أن المقاتل يتعرض فى المعركة ـ وحتى قبل أن تبدأ ـ للتوتر العصبى وعوامل الخوف والقلق كالخوف من التعرض للاصابة أو الوقوع فى الأسر أو الحصار ، والخوف من الموت . والقلق على الاسرة . كما يتعرض أيضا لحالات التعب والأرهاق وقلة النوم . وحالات الملل والضجر ، وللصراع النفسى الذى يدور بداخله بين الدوافع المتعارضة مثل دافع حب البقاء ودافع اداء الواجب . كما يتعرض المقاتل أيضا لحالة (الذعر) التى تنشأ من تأثير الخوف الشديد أو صدمة الموقف المفاجئ ..

هذه العوامل تشكل ضغوطا نفسية شديدة على المقاتلين جميعا ، ولكن مدى الاستجابة لها والتأثر بها وتحملها ، يختلف من مقاتل لآخر تبعا لعدة عوامل مثل تركيبه النفسى ومستوى تدريبه وروحه المعنوية وقدرة قياداته وكفاءتها إلى غير ذلك من العوامل .

فإذا لم يصمد المقاتل أمام تلك العوامل ، فإن كفاءته فى القتال تضعف . كما تضعف روحه المعنوية . وقد يصل الامر إلى التوقف عن القتال أو الفرار من الميدان أو التعرض للاضطرابات العصبية والنفسية[1] التى يسميها علماء النفس (عصاب الحرب) والتى تعطل تفكيره وتعطله عن القتال ، أو قد تجعله غير صالح للقتال نهائيا ..

أخطر تحديات المعركة :

ولعل اخطر التحديات التى يواجهها المقاتل فى المعركة هو (**الخوف من الموت والذعر**) . فالمقاتل . يتواجد فى نفسه صراع دائم بين دافع غريزة حب البقاء وبين دافع الوفاء بالواجب الملقى على عاتقه ، وموقف المقاتل ازاء هذا الصراع يكون واحدا من الاحتمالات التالية :

الاول : أن يتغلب الدافع الاول (حب البقاء) . فنرى المقاتل وقد تدهورت قواه ، وضعفت كفاءته القتالية والمعنوية وقد يستسلم أو يفر من الميدان .

والثانى : أن يتغلب الدافع الثانى (الوفاء بالواجب) ، فنراه يحارب بشجاعة واستبسال ولا يبالى بالموت .

والثالث : ألا ينتهى الصراع بين الدافعين الى تغلب احدهما على الآخر . أى أن يقف المقاتل (فى مفترق الطرق) : يمنعه حب البقاء من التقدم ، ويمنعه ضميره من الفرار ، ولا يتخذ لنفسه امام

(١) مثل الهستيريا والقلق والوساوس والأمراض النفسية الجسدية (السيكوسوماتية) .

هذين الدافعين اللذين يتنازعانه موقفا ايجابيا حاسما ينهى به هذا الصراع .. عند ذلك ، يقع المقاتل فريسة للاضطرابات العصبية والنفسية (عصاب الحرب) كما قدمناه .

وبطبيعة الحال ، فإن المقاتلين يختلفون من حيث استعدادهم للوقوع فى مثل تلك الاضطرابات بحسب استعداداتهم النفسية والجسمية والعقلية ، وتبعا للتنشئة الاجتماعية والتربية منذ مرحلة الطفولة ، ولدرجة اعدادهم للقتال ماديا ومعنويا .

.

من تجارب الحروب :

والدول المتقدمة تُخضع المعركة وظروفها وآثارها على الرجال للتحليل والبحث العلمى وتستخلص من ذلك ما يعينها على اعداد مقاتليها لمواجهة تحديات المعارك ، دون أن يتعرضوا للاضطرابات العصبية والنفسية .

ومن هذه الابحاث ما اجراه البرت . ج . جلاس فى الولايات المتحدة الامريكية حول الخطر المفاجئ وآثاره ، فوجد ان الافراد ينقسمون إلى فئتين :

الفئة الاولى : وتبلغ من ١٥ إلى ٢٥ بالمائة منهم يستطيعون الاحتفاظ بقواهم النفسية والعقلية . ويملكون القدرة على التصرف الايجابى السريع على الرغم من احساسهم بالخطر واستمراره ، على انه قد يتعرض كثير من هؤلاء إلى أن تخور عزائمهم بعد زوال الخطر .

والفئة الثانية : من ٧٥ إلى ٨٥ بالمائة . يصابون بالذهول والارتباك فى مواجهة الخطر المفاجئ . وقد يقبعون فى اماكنهم ، أو

يلوذون بالفرار دون أن يعوا ما يفعلون .

ويقول الجنرال (فولر) ـ مستندا إلى تجربة الترانسفال والحربين العالميتين : « يمسك الخوف بتلابيب نصف الرجال الذين يتقدمون اثناء الهجوم ، ويشل حركة النصف الثانى » .

ويقول الجنرال (مارشال) فى كتابه (الرجال والاسلحة) : « لم تستخدم وحدات المشاة الامريكية اثناء الحرب العالمية الثانية قوة نيرانها بصورة كافية ، لأن معظم جنود المشاة لم يكونوا يستعملون اسلحتهم ، إن اكثر من نصف الجنود لم يطلق طلقة واحدة ببندقيته » .

خطر انتشار الخوف والذعر :

والامر الجدير بالذكر أَنَّ الخوف أو الذعر ، إذا سيطر على المقاتل فى المعركة فإن آثاره لا تقف عنده وحده ، بل قد تمتد إلى غيره من المقاتلين ..

فالخوف كالامراض المعدية التى تنتقل من المريض إلى الآخرين ، وهنا تكمن خطورة الخوف . لأن آثاره تمتد إلى نتيجة المعركة ومصير الجيش والامة ..

وتاريخ الحروب حافل بالمواقف التى تبرهن على خطر انتشار الخوف أو الذعر وآثاره المهلكة ، فمن ذلك مثلا ان قوة كبيرة تركت مواقعها فى المعركة فى صورة من الذعر والفوضى على أثر سماعها صيحة مذعورة اطلقها احد رجالها قائلا :

(الاعداء قادمون) .. ولم يكن هناك فى الحقيقة (اعداء قادمون) ولا غيرهم ، وحقيقة الأمر أن ذلك الجندى كان متكئا

بعد الغروب ، فخيل إليه انه رأى اشباحا مقبلة عليه . فقفز مذعورا وصاح تلك الصيحة المدمرة .

من يستطيع تحمل اخطار المعركة ؟

ولعل أهم ما نستخلصه من دراسة (علم نفس المعركة) أن الحرب ـ أولا واخيرا ـ معاناة قاسية لا يتحملها إلا « الانسان الصحيح نفسيا وعقليا وجسميا » ..

وهذه المجالات الثلاثة للصحة يكمل بعضها بعضا . فالعلة الجسمية تؤثر فى الغالب على الناحيتين العقلية والنفسية ، والعلة العقلية تؤثر فى الجسم والنفس ، والعلة النفسية تؤثر فى الجسم والعقل وتعطل التفكير .

وعملا بقاعدة : « إذا صلح الاساس ، صلح البناء » فإن عملية اعداد المقاتل الصحيح الذى يستطيع تحمل معاناة الحرب القاسية . لا تنحصر فى الاطار العسكرى أي فى مرحلة الخدمة العسكرية ، بل تتجاوزه رجوعا إلى مراحل التربية الاساسية منذ الطفولة ، وإلى اساليب التنشئة الاجتماعية وغيرها من مراحل واساليب (بناء الشخصية) اصلا ..

المنهج الاسلامى :

هنا تبرز عظمة المنهج الاسلامى فى بناء الشخصية بمبادئه القويمة واساليبه الرفيعة التى لا تتسامى اليها النظم الوضعية التى تنتجها عقول البشر . فلقد رسم الاسلام الطريق الصحيح لبناء الانسان

وبناء شخصيته وضميره وعقله وتفكيره وسلوكه . حتى يكون انسانا « صحيح الجسم والعقل والنفس » .. وإذا كان خبراء الحرب وعلماء النفس قد اجمعوا على اهمية فترة التربية والتنشئة منذ الطفولة وعلى أثرها فى بناء شخصية المقاتل ، الامر الذى جعل الجنرال (مارشال) فى كتابه (الجنود فى مواجهة النيران) يقول :

« إذا رغبنا فى الحصول على الجندى الصالح فيجب أن تتجه انظارنا إلى مهد الطفل عندما تنشئه أمه ليكون رجلا ، وإلى المدرسة حيث يتعلم كيف يضحى بمصالحه الشخصية من أجل الوطن . وفى أروقة الحكومة حيث ينبثق فى قلوب الشعب الوعى الصادق عن الواجب »

إذا كان هذا هو ما اجمع عليه الخبراء والعلماء والقادة . فإن الاسلام قد جعله أمرا مبدئيا فى منهجه فى التربية :

فالاسلام يبنى شخصية المسلم لتكون (شخصية سوية) وليجعل منه لبنة قوية متماسكة وعنصرا ايجابيا صالحا فى مجتمعه الكبير . ومقاتلا لا يقهر فى الحرب دفاعا عن الدين واعلاء لكلمة الله .

والاسلام يبنى المجتمع الانسانى الفاضل الذى يهيئ للمسلم المناخ الصالح للتنشئة السليمة والتربية القويمة . كما يهيئ له الفرص التى تتيح له اظهار طاقاته المدخرة فيه .

والمقام لا يتسع لعرض منهج الاسلام فى التربية . وإنما نكتفى ببعض الاسس ذات الصلة المباشرة ببناء شخصية المقاتل وبناء قدرته على قهر تحديات المعركة .

أولا : اسلام الوجـه لله :

إن جوهر الشخصية الاسلامية . هو : « إسلام الوجه لله » :

ومعنى « اسلام الوجه لله » قد فسره الله سبحانه حينما وضع ذروته ممثلة فى شخص الرسول ﷺ إذ يقول :

﴿ قل إن صلاتى ونسكي ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ (الانعام : ١٦٢ - ١٦٣) .

ولعل أول آية نزلت من القرآن الكريم تشير إلى هذا المعنى . وكانت بذلك توجيها من أول الأمر إلى أن يكون العمل باسم الله لا باسم شئ آخر أو كائن آخر :

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ (العلق : ١)

واسلام الوجه لله يكون فى « العقيدة » بالايمان بوحدانية الله . ويكون فى « الاخلاق » بأن يتخلق الانسان بالاخلاق التى أمر الله بها :

● **التوحيد فى العقيدة :**

ليس التوحيد مجرد كلمة تقال ولا أساس لها فى القلب والشعور .. بل إن المسلم الصحيح يؤمن بالتوحيد ايمانا يملك عليه جميع اقطاره ، ويتغلغل فى جميع انحاء شعوره ووجدانه . ويغمر قلبه ونفسه . ويكيف جسمه ، ويوجهه الوجهة السليمة .

والقرآن الكريم يعرض الاسلام فى جوهره واساسه فى قوله تعالى آمرا رسوله الكريم :

﴿ قل إنّما يوحى إلى إنما الهكم إله واحد فهل انتم مسلمون ﴾ (الانبياء : ١٠٨) وفى أمره تعالى لنبيه ﷺ فى خطابه مع أهل الكتاب

ان يقول لهم : ﴿**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سوآء بيننا وبينكم الا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانّا مسلمون**﴾ (آل عمران : ٦٤) .

ويبين الله سبحانه جوهر التدين فى قوله تعالى : ﴿**ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن**﴾ (النساء : ١٢٥) .

ومن أجل ايجاد الانسان الموحد فى صورة واقعية كانت أركان الاسلام .

١ ـ **اشهد الّا إله إلا الله** : انها رسالة السماء الخالدة .

اشهد ان محمدا رسول الله : الذى بلغ الرسالة فأدى بهذا التبليغ الصادق الامانة التى وكلت اليه وهى التوحيد .

ومن هنا كان بدؤها (الله أكبر) لتشعر الانسان من المبدأ أن جميع مافى العالم من مادة ومن بشر تتعلق بهم الآمال أو يناط بهم الرجاء . فإن الله أكبر منهم ، واجل واعظم . فيجب أن تتعلق الآمال به وحده .. وان يقتصر الرجاء عليه سبحانه .

ثم تتوالى لجميع الاوضاع فى الصلاة ، من قراءة وركوع وسجود وتشهد ، لتعلن بكل حركة وبكل وضع ، الانفصال عما سوى الله من أجل الاتجاه إلى الله وحده ومن أجل اسلام الوجه اليه سبحانه .

٢ ـ **والصوم** : إنما هو تنزه عن المادة . وعن السوء فى القول والعمل فترة من الزمن من أجل مرضاة الله ، انه تنزه عن النقص فى سبيل التوحيد .

٣ ـ **والزكاة** : إنما هى بذل المادة فى سبيل الله ، تلك المادة التى يجرى وراءها البشر ويكادون يعبدونها . بذلها بعد امتلاكها .. انها تجرد عن المادة توحيدا لله سبحانه .

٤ ـ **وأما الحج** : فانه تجريد كله ، انه تجرد روحى عن الماضى ، فى مبدئه توبة عن الذنوب ، والآثام أى عن الفترات التى غفل الانسان فيها عن ذكر الله ، وهو تجرد حتى عن ملابس الماضى ، وهو تلبية من أول لحظاته : تلبية هى استجابة لله وحده ، أو هى توحيد خالص ، انها استجابة كاملة للأمر بنفى الشريك .

« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » .

٥ ـ **التوحيد فى الاخلاق** :

اما التوحيد فى الاخلاق ، فمعالمه انه لا يصدر الانسان فى سلوكه الشخصى أو سلوكه الاجتماعى إلا عن توجيه إلهى ، وان يتخلق بالاخلاق التى أمر الله بها ، وان يكون فى كل ما يأتى وما يدع قاصدا وجه الله تعالى ، وان تكون صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين لا شريك له .

ثانيا : تحرير شخصية المسلم من خوف الموت :

ومن الاسس التى لها صلة مباشرة ببناء المقاتل فى منهج الاسلام فى بناء الشخصية ، تحرير شخصية المسلم من خوف الموت .. وهو اخطر التحديات التى تواجه المقاتل فى المعركة كما قدمنا .

ان الانسانية فى مختلف ازمنتها وامكنتها تخاف الموت وتخشاه .

وهذا يقودها إلى الاستبعاد للاقوياء . ويصيبها بالقلق والاضطراب والجبن فى مواجهة الاخطار . ويحاول المفكرون والقادة ـ فى مجال اعداد المقاتل ـ بكل الوسائل المعنوية والمادية أن يُنَمُّوا فى المقاتل بعض القدرة على التغلب على الخوف أو التخفيف من آثاره .

لكن الاسلام له موقف آخر .. إنه (يحرر) شخصية المسلم من خوف الموت لأنه أمر لا يتمشى مع عقيدة التوحيد .. فإن مالك الملك انما هو وحده الذى يملك الموت والحياة . وهو الذى قدر الآجال ، ﴿**فإذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون**﴾ فيدرك المسلم ان الحرص على الحياة أو الجبن ليس من اسباب إطالة الاجل . كما أن الشجاعة والاقدام ليسا من أسباب تقصير الاجل ، وقد بين الله تعالى ذلك فى كتابه الكريم إبانة تامة :

ـ ﴿**كل نفس ذائقة الموت**﴾ (آل عمران : ١٨٥)

ـ ﴿ **اينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة** ﴾ (النساء ٧٨)

ـ ﴿ **ولكل امة أجل فإذا جآء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** ﴾ (الاعراف : ٣٤)

ـ ﴿ **وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا** ﴾ (آل عمران : ١٤٥)

ـ اما هؤلاء الذين قالوا : ﴿ **لو كان لنا من الامر شئ ما قتلنا هاهنا** ﴾ فإن الله سبحانه يرد عليهم : ﴿ **قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم** ﴾ (آل عمران . ١٥٤)

ـ وهؤلاء الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا : ﴿ **لو اطاعونا ما قتلوا** ﴾

فإن الله سبحانه وتعالى يأمر رسول الله ﷺ أن يرد عليهم قائلا :
﴿ **فادرءوا عن انفسكم الموت إن كنتم صادقين** ﴾ (آل عمران : ١٦٨) .
ـ اما الذين يفرون امام اعداء الله فهؤلاء : ﴿ **انما استنزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا** ﴾ (آل عمران : ١٥٥) .

فالمؤمن الصادق الايمان لا يعرف الجبن ، ولا يستنزله الشيطان موسوسا له بالخوف من غير الله تعالى .. ومن اعظم ما يروى فى هذا المقام انه فى غزوة احد ، وبعد أن أحاط المشركون بالمسلمين من كل جانب ، التف حول الرسول ﷺ نفر قليل من المسلمين يدافعون عنه .. وفى ذلك الموقف العصيب بايع الرسول على الموت ثمانية هم : على والزبير وطلحة وابودجانة والحارث بن الصمة والحباب بن المنذر وعاصم بن ثابت وسهل بن حنيف ، ووقفوا يفدونه بانفسهم ويقاتلون دونه ويتلقون السهام والطعنات والرماح والسيوف باجسادهم ومع ذلك فلم يستطع المشركون ان يقتلوا منهم واحدا ، وعاشوا جميعا .. ﴿ **وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا** ﴾ (آل عمران : ١٤٥) .

ثـالثـا : الاستشهاد شرف وأمل :

والحق ان المسلم الذى تربى على منهج الاسلام لا يهاب الموت فحسب ، بل انه يعد الاستشهاد فى المعركة شرفا يسعى اليه ، وأملا تتطلع نفسه إلى بلوغه .

ان المجاهد فى سبيل الله يضع نصب عينيه احد أمرين اما النصر واما الشهادة . وذلك ما يفهم من قول الله تعالى :

﴿ فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيُقتل أو يغلب فسوف نؤتيه اجرا عظيما ﴾

(النساء : ٧٤)

● والمتأمل فى المقابلة بين (يُقتل) و (يغَلب) فى الآية الكريمة قد يتساءل : لماذا لم يقل المولى جلت حكمته فيغلب (بفتح الياء) أو يغلب (بضم الياء) ؟ لان المقاتل إما أن يكون غالبا أو مغلوبا .

ويمكن الاجابة على ذلك بأن المجاهد المؤمن لا يُغلب ابدا (أى لا يقهر) وذلك لانه ينتظر احدى الحسنيين ولا ثالث لهما فيما يقدره من نتائج لأنه فائز فى كل من النصر أو الشهادة غير مغلوب .

● وكذلك يلاحظ المتأمل فى هذه الآية الكريمة انه قدّم فيها القتل على الغلب (فيقتل أو يغلب) وفى هذا تحريض للمجاهدين على الاقدام واسترخاص النفوس فى سبيل الله ، بل فيه اغراء بالاستشهاد ، واشعار بأن شرفه اعظم واكرم من شرف النصر .

● كذلك يستشف من هذه الآية أن المقاتل المجاهد لا يكف عن قتال العدو حتى يكتب له النصر . فإذا لم يتحقق ، فالمعركة مستمرة ، ما لم تزهق روحه ويقع سلاحه .

● كما يفهم ايضا ان المجاهد الصادق الذى يعد العدة الكافية ، ويتبع سنن الله فى الارض . لا يمكن أن يغلب ، لأن الله تعالى فى هذه الحالة يكون معه . ولأنه وعده بالنصر ، ووعد الله لا يتخلف . وقد قال جل شأنه : **﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾** .

ولقد فهم المسلمون الاوائل هذه المعانى الرفيعة وعمرت بها قلوبهم ، حتى صارت هذه الشهادة املا وشرفا ومطلبا . وذلك من

اعظم ما ينفرد به منهج الاسلام فى بناء الشخصية .

إن انس بن مالك عندما شعر بسن الرمح يخترق ظهره قال : (فُزت ورب الكعبة) ، وكان الشهيد يردد وهو يحتضر قول الله تعالى : ﴿ **وعجلت اليك رب لترضى** ﴾ ، وكان جاره فى الصف يقول له : « هنيئا لك الشهادة » .. ومن ذلك أن اخوين كان على احدهما أن يخرج للقتال ويبقى الآخر فى المدينة لظروف تحتم بقاءه . فاختلفان : لا لأن كلا منهما يريد أن يبقى ، بل لأن كلا منهما كان يريد الخروج للقتال ، فيقول للآخر الذى يدعوه للبقاء : «أتريد أن تخرج لكى تظفر بالشهادة دونى» ؟!

وقد عبر خالد بن الوليد عن هذا المعنى الرفيع حين كتب إلى قائد جيش الاعداء الذى غرته كثرة جنده فاستهان بجيش المسلمين ودعاهم إلى الاستسلام : « لقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

شهادة التاريخ :

ولقد اثبت التاريخ ان المقاتل المسلم الذى تربى على منهج الاسلام مقاتل من طراز فريد لا ترقى إلى بلوغه اعظم الاساليب التى قررتها عقول القادة والمربين فى كل زمان ومكان ، وسجلات المعارك الاسلامية حافلة بما لا يحصى من الادلة والبراهين على أن المقاتل المسلم تجتمع لديه كل السجايا والفضائل الحربية التى تجعله مقاتلا لا يقهر ..

وهذا هو السر فى التحول الكبير الذى حدث للعرب بعد

الاسلام :

فلقد كانت للعرب قبل الاسلام خبرة طويلة بالحرب . لكنهم لم يحققوا ما حققوه بعد الاسلام من فتوحات امتدت فى أقل من مائة عام من حدود الصين شرقا إلى المحيط الاطلسى غربا .

ثم ان النبي ﷺ فى قتاله دفاعا عن الدين كان يحارب عربا بعرب . بل قرشيين بقرشيين . فكان المسلمون ينتصرون رغم تفوق اعدائهم .

إن النتيجة المنطقية التى تستخلص من ذلك هى أن الاسلام هو سر ذلك التحول العظيم الذى حدث للعرب حتى صارت اليهم مقادة العالم ، ووصلوا إلى القمة التى لم تصل اليها أمة ، وحققوا بجهودهم وجهادهم وسمو اخلاقهم قول الله فيهم : ﴿**كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾ (آل عمران : ١١٠) .

مدرسة القيادة الإسلامية

أما الآن فقد اختلف الأمر كلية بسبب التطور المذهل فى كل ما يتعلق بالحرب من وسائل الاستطلاع والحصول على المعلومات ومن قوة تدميرية هائلة للأسلحة ومن وسائل فائقة السرعة للنقل والمواصلات ومن سرعة فائقة فى الحركة والمناورة ومن مدى غير محدود للأسلحة والمقذوفات إلى غير ذلك..

ثم انه فى العصر الحديث لم تعد هناك بقعة من أرض الوطن أو من سمائه أو من مياهه الاقليمية بمنأى عن متناول العدو، واصبحت الحرب الحديثة لا تدور فقط بين الجيوش المتحاربة فى ميدان القتال، بل امتدت إلى عمق الدولة بكل ما فيه من منشئات حيوية ومصانع ومعابر وسدود ومطارات وموانى وخطوط مواصلات وتجمعات سكانية ومرافق، وهكذا أصبح من أشد الأخطار على أمن الأمة وسلامتها فى هذا العصر أن تتعرض لهجوم مفاجىء من اعدائها، وأصبح مصير الأمم ـ ايضاً ـ متوقفاً على درجة استعدادها القتالى وقدرتها على صد العدوان عليها.

والأمم الواعية اليوم تبذل اقصى ما فى طاقتها من جهد لكى تمنع اعداءها من مفاجآتها فنراها تؤسس استراتيجيتها العسكرية على تدبير وسائل الاستطلاع المتقدمة والحصول على المعلومات والانذار المبكر وعلى ابقاء جانب من قواتها المسلحة على اقصى درجات الاستعداد للقتال الفورى، ولكى ندرك مدى التقدم فى وسائل الحصول على المعلومات والانذار المبكر يكفى أن نعرف أن قمراً فضائياً واحداً مثل القمر الأمريكى «بيج بيرد» الذى لا يتجاوز طوله ٥٥ قدماً وعرضه ١٠ أقدام ووزنه ١٢ طناً، يظل يدور فى الفضاء على ارتفاع ٢٥٠

أو ٩٠ ميلاً حسبما يراد له ، ويظل يلتقط «بكاميراته» أو آلات تصويره الالكترونية ، ومستشعراته الحرارية ، واشعته تحت الحمراء ، وموجاته التليفزيونية كل ما يجرى فى ميدان الحرب مرة كل ٩٠ دقيقة أو نحو ذلك ولمدة ٢٥٠ يوماً متصلة ليلاً ونهاراً . فوق مساحة تزيد مائة مرة عما كانت تراه طائرة الاستطلاع ، وبدقة تفوق دقتها عشرات المرات .

وهكذا أصبح فى قدرة قمر فضائى واحد ، أن ينجز من المهام ما تعجز عن انجازه المئات من طائرات الاستطلاع ، وتحت ظروف جوية قد تمنع أقوى الطائرات من الاقلاع فى الجو.

أسس النظرية الاسلامية فى الاستعداد القتالى :

ولقد عنى الاسلام أشد العناية بوقاية الأمة من خطر المباغتة وآثارها المدمرة ، فقرر للاستعداد القتالى نظرية كاملة فى غاية الأحكام وتقوم على أسس ثلاثة :

الأساس الأول : اليقظة والحذر :

يقول الله تعالى : ﴿**ياأيها الذين آمنوا خذوا حذركم**﴾ (النساء ٧١)

ويقول أيضاً : ﴿**واطيعوا الله واطيعوا الرسول واحذروا**﴾ (المائدة ٩٢)

كما يقول جل شأنه : ﴿**ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون**﴾ (التوبة ١٢٢) .

ولعل أبلغ ما يؤكد اهتمام الاسلام باتخاذ الحيطة واليقظة والحذر

ما ورد فى القرآن الكريم بشأن الصلاة فى الحرب فقد أمر الله تعالى بادائها فى وقتها ولكنها تكون ركعتين بدلاً من أربع . وأمر بأن تصلى طائفة مع الرسول ﷺ بينما الطائفة الأخرى فى موقف الحراسة . حتىٰ اذا فرغت الطائفة الأولى اتخذ كل من الفريقين حالة الآخر . قال تعالى :

﴿وإذا كنت فيهم فاقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا اسلحتهم فاذا سجدوا فليكونوا من ورآئكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم واسلحتهم ؛ ود الذين كفروا لو تغفلون عن اسلحتكم وامتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة﴾ (النساء ١٠٢) وهكذا أوجب على المصلين أن تكون معهم اسلحتهم وجعل الطائفة الثانية للحراسة حتىٰ لا يباغتهم العدو .

ونستطيع أن نستخلص مما تقدم المبادىء التالية :

١ ــ ان الاسلام يعد الحذر واليقظة واتخاذ الحيطة اموراً بالغة الحيوية لمصلحة الاسلام والمسلمين ، وانه لا يرضىٰ بالتواكل ابداً . وهل هناك ادل على ذلك من انه يأمر المسلمين باتخاذ الحيطة والحذر والاستعداد حتىٰ فى الصلاة التى يؤدونها لله ويكونون فيها بين يديه ؟؟

٢ ــ إن الاسلام يفتح عيون المسلمين على الخطر المحدق بهم من اعدائهم المتربصين الذين ينتظرون لحظة الغفلة منهم : **﴿ود الذين كفروا﴾** الآية .. كما يجسد عواقب تلك الغفلة ، والاضرار البالغة التى يعرض لها المسلمون من جرائها : «فيميلون عليكم ميلة واحدة» .

٣ ـ إن الاسلام يحذر من الاغترار بالقوة ، فهى تؤدى إلى اهمال الحذر واتخاذ الحيطة ، ولقد كان ما حدث للمسلمين فى غزوة حنين من هزيمة بسبب اغترارهم بقوتهم أعظم درس فى هذا المجال ، وذلك حين قال قائلهم : ﴿**لن نغلب اليوم من قلة**﴾ .

٤ ـ إن الاسلام يحذر من الاستهانة بالعدو ، فهى أيضاً كالاغترار بالقوة تعود إلى اهمال الحذر واتخاذ الحيطة فتتعرض الأمة للخطر والهلاك ، وما أصدق المثل القائل «إن كان عدوك نملة ، فلا تنم له» .

وما أصدق قول الشاعر :

لا تحقرن صغيراً فى مخاصمة　　　إن الذبابة ادمت مقلة الأسد

وهكذا نرى أن الاسلام يجعل من اليقظة والحذر قضية حياة أو موت بالنسبة للأمة الاسلامية .

الأساس الثانى : تلازم القوة والمرابطة :

يقول الله تعالى : ﴿**واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم**﴾ (الانفال ٦٠) .

ويقول جل شأنه : ﴿**ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون**﴾ (آل عمران ٢٠٠) .

فى هذه الآيات الكريمة يأمر الله تبارك وتعالى باعداد القوة وبالرباط[١] حماية للاسلام والمسلمين . وقد خص الله (رباط

---

(١) الرباط بكسر الراء معناه فى اللغة الحبل الذى تربط به الدابة . والمراد به فى الآية ملازمة المكان الذى بين المسلمين والكفار لحماية المسلمين .

الخيل) بالذكر فى الآية الأولى مع انها داخلة فيما قبلها (من قوة) وهذا دليل على أمرين فى غاية الأهمية :

١ ـ أهمية المرابطة وضرورتها الحيوية .

٢ ـ تأكيد تلازم القوة والمرابطة وابراز لما بينهما من صلة وثيقة متبادلة بحيث لا تستغنى احداهما عن الأخرى :

● فالقوة ، تحميها المرابطة بالحراسة واليقظة والحذر والانذار المبكر . وهى بدونها تفقد قيمتها وفعاليتها إذا تمكن العدو من المباغتة .

● والمرابطة ، فى حاجة إلى القوة التى تشكل لها القاعدة الوطيدة التى ينطلق منها وتعود إليها ، والتى تساندها وتدعمها .

وهذا التلازم الذي اقتضته حكمة الله بين القوة والمرابطة يشبه إلى حد بعيد علاقة الجسم بالحواس التى خلقها الله فيه ليحس بها الأشياء ، فهذه الحواس لا غنى لها عن الجسم الذى يمدها بالغذاء واسباب الحياة ، كما أن الجسم لا غنى له عن الحواس التى عن طريقها يسمع ويرى ويشم ويلمس ويتذوق ... ولقد كان معنى الرباط فى الماضى هو ربط الخيل فى الثغور التى يتوقع هجوم العدو منها بقصد الاستعداد لرده وصده وقمع عدوانه إذا حاول العدوان . فكان المرابطون يقضون الليل والنهار ساهرين شاهرين سيوفهم واسلحتهم متأهبين للقتال لا يغادرون أماكنهم حتىٰ يحل غيرهم محلهم . وليس من شك فى أن الرباط بمفهوم العصر أصبح واسع المدلول وممتدا ليشمل كل مساحة الدولة وليس حدودها فقط . كما يشمل سماء الدولة ومياهها أيضاً ، فقد عرفنا انه لم تعد هناك بقعة

من أرض الدولة أو سمائها أو مياهها بمنأى عن متناول العدو .

الرباط والجهاد :

والرباط نوع من الجهاد له وزن كبير وشأن خطير فى تقدير الاسلام :

● عن سهل بن سعد رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

«**رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط احدكم فى الجنة خير من الدنيا وما عليها ، والروحة يروحها العبد فى سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها**» . (رواه الشيخان) .

— وعن سلمان الفارسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه» (رواه مسلم وغيره) .

● «وسئل رسول الله ﷺ عن الرباط فقال : «**من رابط ليلة حارساً من وراء المسلمين كان له أجر من خلفه ممن صام وصلى**»

(رواه الطبرانى عن أنس بن مالك)

— وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«**عينان لا تمسها النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله**» (رواه الترمذى) .

الأساس الثالث : درجة الاستعداد القصوى :

قال الرسول ﷺ : **«خير رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله كلما سمع هيعة (أى صيحة خطر) طار إليها»** .

وفى رواية أخرى :

«من خير معايش الناس لهم رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله ، يطير على متنه (أى ظهره) كلما سمع هيعة أو عزعة (أى الخوف) طار عليه يبتغى القتل أو الموت» .

وينطوى الحديث الشريف على عدة مبادىء لدرجة الاستعداد القصوى :

١ ـ الاستعداد المستمر للانطلاق الفورى :

إن كلمة «ممسك» فى عبارة (رجل ممسك بعنان فرسه) تعنى من الناحية اللغوية درجة من الاستعداد أكبر من مجرد ركوب الفرس ، فهى تفيد «استمرار» حالة الامساك بعنان الفرس .

فهى تدل بذلك على معنىً الاستعداد الكامل والمستمر للانطلاق بمجرد الاشارة ، فالفارس والحالة هذه ، إذا جاءه الأمر بالانطلاق ، أو إذا رأى خطراً ، لن يكون بحاجة إلى الاتيان بأى تصرف ولا حتىٰ مد يديه إلى عنان فرسه ليمسك به لأنه ممسك به فعلاً ، أى أن كل ما سوف يفعله هو الانطلاق فى الحال .

٢ ـ الانطلاق بأقصى سرعة :

وكلمة «طار» فى عبارة (كلما سمع هيعة طار إليها) ذات مدلول لسرعة الحركة يفوق كثيراً كلمة اندفع أو أسرع ، فهى كلمة تعبر عن

أسرع أشكال الحركة على الاطلاق . لأنها أكثر ألفاظ الحركة دلالة على السرعة ، ونحن عادة ما نقول لمن نريد منه أن يندفع بأقصى سرعة : «طر» .

وهكذا اراد رسولنا الكريم ﷺ أن يكون انطلاق الرجل المتأهب أو (القوة المتأهبة) بأقصى سرعة ممكنة .

٣ ـ دوام حالة الاستعداد القصوى :

ونفهم أيضاً من الحديث الشريف أن حالة الاستعداد القصوى يجب أن تكون «حالة دائمة» لا تتوقف إذا زال الخطر . وهو ما يفهم من لفظ «كلما» فى عبارة (كلما سمع هيعة طار إليها) فالاستعداد هنا لا يكون للانطلاق نحو الخطر ثم نعود إلى الحالة العادية بعد الفراغ من المهمة ، بل إنَّ الاستعداد يجب أن يظل على درجته القصوى لمواجهة أى خطر جديد وبعبارة أدق لمواجهة (كل خطر جديد) .

٤ ـ ضرورة توفر خفة الحركة للقوة المتأهبة :

وذكر «الخيل» فى مجال الاستعداد القتالى كما ورد فى الآية الكريمة ﴿**واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل**﴾ ، وكما ورد فى الحديث الشريف (رجل ممسك بعنان فرسه) إنما يرمز إلى مبدأ هام هو ضرورة توفر خفة الحركة للقوة المتأهبة على درجة الاستعداد القصوى ، وإذا كانت الخيل هى وسيلة خفة الحركة فى صدر الاسلام ، فالسيارة والدبابة والعربة المدرعة والطائرة هى وسائل خفة الحركة فى العصر الذى نعيش فيه .

٥ ـ تكريم منزلة القوة المتأهبة :

لقد وصف الرسول الكريم ﷺ الرجل الممسك بعنان فرسه فى الحديث المتقدم بأنه «خير الناس» وهذا الوصف لا يفوت مغزاه على القادة العسكريين وخبراء العلم العسكرى ، فهو وصف ينطوى على تكريم للمجاهد الذى يقف فى أعلى درجات اليقظة والتأهب (درجة الاستعداد القصوى) وهو تكريم يستحقه لقاء العناء والجهد البدنى والعصبى الذى يبذله لكى يكون على تلك الحال من الاستعداد القتالى ، ويستحقه أيضاً لقاء تنبيهه لأمته إلى الخطر الذى يهددها حتىٰ لا تؤخذ على غرة .

وينطوى هذا الوصف أيضاً على تحريض للمجاهدين جميعاً لأن يكونوا فى أعلى درجات الاستعداد القتالى للدفاع عن أمتهم .. كان أبوهريرة رضى الله عنه مع أصحاب رسول الله ﷺ مرابطين .. ففزعوا إلى الساحل ، ثم قيل : لا بأس فانصرف الناس (يعنى : إلى مواقعهم) ووقف أبوهريرة (أى : قريباً من مصدر الخطر) فمر به انسان فقال : يا أبا هريرة ، ما يقفك ؟؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : **«موقف ساعة فى سبيل الله خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود»** (رواه البيهقى وابن حبان عن مجاهد)

وعن أبى أمامة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

«إن صلاة المرابط تعدل خمسمائة صلاة . ونفقة الدينار والدرهم منه أفضل من سبعمائة ينفقه فى غيره» (رواه البيهقى) .

وعن أبي الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«من مات مرابطاً فى سبيل الله ، أمن من الفزع الأكبر . وغدى عليه برزقه وريح من الجنة ويجرى عليه اجر المرابط حتىٰ يبعثه الله عز وجل» (رواه الطبرانى) .

الصور المعاصرة للدرجة الاستعداد القصوى :

ومن الأمور المدهشة أن أوضاع درجات الاستعداد القصوى التى تتخذها الجيوش الحديثة اليوم تشبه إلى حد كبير الأوضاع التى قررها الاسلام منذ اربعة عشر قرناً ، وان دل ذلك على شيء فانما يدل على أن الله جلت قدرته يريد لهذه الأمة أن تعيش فى كل عصر أمة قوية لا تؤخذ على غرة :

طائرات القتال الاعتراضية :

فان وضع الرجل الممسك بعنان فرسه فى الحديث الشريف الذي استخلصنا منه مبادىء الاستعداد القصوى بكل وضوح هو بالضبط الوضع الذى يتخذه اليوم طيارو المقاتلات الاعتراضية الذين ينطلقون لقتال طائرات العدو المغيرة ، وهذا الأسلوب تتبعه كل جيوش العالم اليوم ، حيث تخصص جانبا من طائراتها المقاتلة الاعتراضية لتكون فى أقصى درجات الاستعداد القتالى للانطلاق فور صدور الانذار وذلك فى إطار خطة الدفاع الجوى عن الدولة .

ومن أجل ذلك تكون هذه الطائرات محملة بالذخائر والصواريخ ، وخزاناتها ممتلئة بالوقود ، وتكون رابضة فوق مدرج (أو ممر) الطيران فى المطارات الحربية ، ويكون بداخل كل طائرة

طيارها بكامل ملابسه ومعداته واجهزته ، وليس ذلك فحسب . بل أن يديه تكونان ممسكتين بعصا قيادة الطائرة ، وفوق أذنيه سماعات جهاز اللاسلكى المتصل بقيادته ، فاذا ما صدرت إليه الاشارة بالاقلاع ، لا يكون أمامه من عمل يقوم به سوى الاقلاع ... وبعض الجيوش تسمى هذه الحالة من حالات الاستعداد القصوى باسم «الحالة الأولى» لأنه عادة ما تكون هناك طائرات أخرى فى «الحالة الثانية» يمكنها الاقلاع بعد وقت قصير تحدده النظم الموضوعة . فمثلاً نجد بعض الجيوش تقرر أن تكون الطائرات التى فى الحالة الثانية قابعة فى ملاجئها الحصينة ولكنها تكون مجهزة تماماً للعمل ، أما الطيارون فيكونون فى مكان الراحة فى القاعدة الجوية فاذا جاءهم الأمر انطلقوا إلى طائراتهم ليقعدوا بها فى حدود الزمن المقرر .

قوات الأبرار الجوى الخاصة :

وتلك صورة أخرى من صور درجات الاستعداد القتالى فى حالات الطوارىء ، حيث تكون هناك قوة من رجال المظلات أو القوات الخاصة التى تنقل جواً ، مجهزة بأسلحتها وذخائرها ومعداتها ورابضة بجوار الطائرات المخصصة لها (طائرات نقل أو هليكوبتر) فاذا جاءها الأمر اتخذت أماكنها فى طائراتها التى تقلع بها فى حدود الزمن المقرر . مثل هذا نجده فى القواعد البحرية ، وعلى ظهر الأساطيل التى تجوب المحيطات والبحار حيث نجد مثلاً حاملات الطائرات التى تحمل قوات الأبرار البحرى أو الجوى لتنطلق بهم الطائرات إلى الموضع المطلوب .

القدوة الحسنة فى الاستعداد القتالى :

ولقد قدم الرسول ﷺ بنفسه مثلاً عظيماً على الاستعداد القتالى ، عن أنس رضى الله عنه قال : «كان ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس . لقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت ، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً قد سبقهم إلى الصوت واستبرأ الخبر ، على فرس لأبى طلحة عرى[1] والسيف فى عنقه وهو يقول : لن تراعوا ...» (رواه الشيخان) .

وهكذا كان الرسول القائد عليه الصلاة والسلام أول الناس استعداداً واسرعهم إلى النجدة .

المعلومات والاستعداد القتالى :

ولا مراء فى أن الاستعداد القتالى يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتوفر المعلومات عن نوايا العدو واستعداداته وحركاته ، وأن سلامة الأمة وأمنها يتحققان بدرجة أكبر كلما أمكن الحصول على هذه المعلومات مبكراً ، إذ لا قيمة للمعلومات التى تأتى بعد فوات الأوان أو التى لا تأتى فى الوقت المناسب .

ومن أجل ذلك عنى الاسلام بهذا الأمر أشد العناية . فكان الرسول ﷺ معنياً بالاستطلاع والحصول على المعلومات عن الأعداء وعن كل ما يتعلق بسلامة المسلمين وامنهم ، فكانت له

(١) أى بدون سرج ـ يقال : عرى الفرس أى لم يكن عليه سرج .

عيون وارصاد فى المدينة وفى مكة وفى القبائل العربية الأخرى فى أنحاء شبه الجزيرة ، بل كانت له عيون وارصاد فى بلاد فارس وبلاد الروم ...

وقد اثبت تاريخ السيرة أن نيات الأعداء بالعدوان كانت تبلغ النبى ﷺ فى وقت مبكر يمكنه من اتخاذ الاجراءات التى يقتضيها كل موقف فى الوقت المناسب .

أمثلة عملية من عهد النبوة (**انظر الجدول**) :

وبتحليل الغزوات التى قادها الرسول ﷺ بنفسه (٢٨ غزوة) نجد أن سبعاً منها خرج فيها الرسول بقوة محدودة من المسلمين لمهاجمة أعداء علم أنهم يدبرون للهجوم عليه ، ففاجأهم فى عقر دارهم واجهض تدبيرهم ، كما نلاحظ أن الأعداء فى كل تلك العمليات كانوا يفرون تاركين ديارهم وأموالهم .

ويمكن أن نستخلص من هذه الأمثلة العملية ما يلى :

١ ــ أن المعلومات عن نوايا الأعداء وتدبيراتهم كانت تبلغ الرسول ﷺ مبكراً وفى الوقت المناسب وهذا دليل على يقظة العيون والارصاد ودرجة استعدادهم .

٢ ــ أن درجة الاستعداد القتالى للمسلمين من القوة والكفاية بحيث مكنتهم من الحركة السريعة نحو مصدر الخطر ، ففاجأوا أعداءهم قبل أن يستعدوا للقائهم الأمر الذى اضطروا معه للفرار أمام المسلمين .

٣ ــ ثم أن حرص الرسول ﷺ على أن يتولى «بنفسه» قيادة

غزوات اجهاض تدبير الأعداء لمهاجمة المسلمين

مسلسل	اسم الغزوة	التاريخ	المكان	الأعداء	قوات المسلمين بقيادة الرسول ﷺ	النتائج
١ ـ	عزوة بني سليم	شوال من السنة الثانية للهجرة	قرقرة الكدر بين المدينة ومكة	بنو سليم وغطفان	٢٠٠ راكب وراجل	فرر بني سليم وغطفان وقد تركوا مواطنهم للمسلمين
٢ ـ	عزوة ذي أمر	محرم من السنة الثالثة للهجرة	ذو أمر موضع في نجد	بنو ثعلبة ومحارب	٤٥٠بين راكب وراجل	فر بنو ثعلبة ومحارب وبقي المسلمون في ديارهم حوالي شهر
٣ ـ	غزوة بحران	ربيع الأول من السنة الثالثة للهجرة	بحران على طريق المدينة مكة	بنو سليم	٣٠٠ راكب وراجل	فر بنو سليم فبقي المسلمون في ديارهم حوالي شهر
٤ ـ	عزوة ذات الرقاع	محرم من السنة رابعة للهجرة	ذات الرقاع بنجد	بنو محارب وبنو ثعلبة	٤٠٠ راكب وراجل	فرار بني ثعلبة وبني محارب
٥ ـ	عزوة دومة الجندل	ربيع الأول من السنة الخامسة للهجرة	دومة الجندل	قبائل دومة الجندل	١٠٠٠ راكب وراجل	فرت القبائل
٦ ـ	عزوة بني المصطلق	شعبان من السنة الخامسة للهجرة	المريسيع	بنو المصطلق	١٠٠٠ راكب وراجل	فر بنو المصطلق بعد معركة قصيرة ضد المسلمين
٧ ـ	عزوة بني لحيان	جمادي الأولى من السنة السادسة للهجرة	غران	بنو لحيان	حوالي ثلاثة آلاف	فر بنو لحيان

هذا النوع من العمليات العسكرية ، إنما هو تأكيد على أهمية الاستعداد القتالى وعلى أنه ضرورة حيوية لسلامة الأمة وأمنها .

أركان الاستعداد القتالى فى ضوء الاسلام :

وفى ضوء النظرية الاسلامية للاستعداد القتالى التى استعرضناها بايجاز يمكننا أن نستخلص أركان الاستعداد القتالى بمنطق العصر الذى نعيش فيه كما يلى :

١ ــ ضرورة توفر وسائل الانذار المبكر والاستطلاع والمخابرات والأمن التى تحقق ما يلى :

ــ الحصول مبكراً على المعلومات عن العدو ونواياه واستعداداته وحركاته .

ــ حرمان العدو من الحصول على المعلومات عن الأمة وقوتها .

٢ ــ اتساع نطاق الحراسة والمراقبة ليشمل حدود البلاد ومساحة أراضيها وسماءها ومياهها الاقليمية وما لديها من منشئات ومرافق حيوية .

٣ ــ الاحتفاظ بصفة دائمة باجزاء من القوات على درجة عالية جداً من الاستعداد القتالى للعمل الفورى مع تزويدها بوسائل الحركة السريعة فى البر والبحر والجو (درجة الاستعداد القصوى) .

٤ ــ ضرورة توفير الكفاءة القتالية العالية للقوات الرئيسية من حيث مستوى التدريب على القتال وكفاءة الأسلحة والمعدات وصلاحيتها ومن حيث مستوى الانضباط والروح المعنوية وإرادة القتال والتنظيم الخ ..

٥ ــ وجود نظام دقيق ومحكم للنفير (التعبئة) يمكن من استغلال مختلف مصادر القوة فى الدولة بكفاءة عالية .

ردع الأعــداء

أساس الاستراتيجية العسكرية الإسلامية :

أمر الله تعالى باعداد القوة والمرابطة على النحو الذى يرهب الأعداء ويخيفهم من عاقبة عدوانهم فقال جل شأنه :

﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ (الأنفال ٦٠)

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « **أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وكان النبى يبعث الى قومه خاصة ، وبعثت الى الناس كافة ، وأعطيت الشفاعة** » (متفق عليه)

من ذلك يتضح أن الإسلام يأمر بإعداد القوة ورباط الخيل ، ويجعل الهدف من ذلك هو إرهاب الأعداء وأخافتهم من عاقبة التعدى على الأمة الإسلامية .

ويفهم أيضا من حديث الرسول ﷺ « **نصرت بالرعب مسيرة شهر** » أن إظهار القوة للأعداء وإخافتهم يحقق النصر عليهم ويؤدى الى تحقيق أهداف الرسالة الإسلامية أكثر من أية وسيلة أخرى .

وهكذا يكون « الردع » أساسا للاستراتيجية العسكرية الإسلامية ..

الــردع والســـلام :

إن الإسلام دين سلام ورحمة ، والسلام فى مبادئ الإسلام أصل فى عقيدته وعنصر من عناصر تربيته ، وهدف يعيش فى وجدان الفرد ، وفى بناء الأمة ، بل يصرح القرآن الكريم بأن الثمرة المرجوة من اتباع الإسلام هى الأهتداء الى طرق السلام والنور كما يفهم من قوله تعالى فيه : ﴿**قد جآءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ويهديهم الى صراط مستقيم**﴾ (المائدة ١٥ ــ١٦) .

لكن الإسلام ــ فى الوقت نفسه ــ دين علمى يأخذ الحياة من واقعها ، وينظر الى الناس من خلال فطرتهم التى فطروا عليها ، فقد راعى طبائع الخلائق وميلها إلى المشاحنات ، فرأى أن يعد أهله للقتال إذا قوتلوا ، وضمن لهم النصر وإن كانوا قلة ، واشترط عليه حتى يحوزوا النصر ، أن يستعدا وأن يتدربوا على فنون القتال ويتقنوا أسليبه . وحيله ، واشترط عليهم أول ما اشترط أن يصبروا عند اللقاء وأن يثبتوا .

وهكذا اقتضت حكمة الله جل شأنه أن يكون الإسلام « دين قوة » ليدافع بها عن نفسه ، لا ليعتدى بها على الآخرين ، وعليه أن يحتفظ بهذه القوة « دائما » ليرغم أعداءه على أن يلتزموا حدودهم .

فالسلام الذى دعا إليه الإسلام ، لا يعنى القعود عن

الاستعداد للدفاع ورد العدوان ، لكنه سلام تحميه القوة والاستعداد القتالى ، لأنهما أقوى ضمان ، لتحقيق السلام والمحافظة عليه .. من أجل ذلك أمر الإسلام المسلمين بأن يملكوا القوة التى تردع أعداءهم وترد عدوانهم .

نيـل المقـاصـد الإسـلاميـة :

ولابد من التنويه بأن الردع الإسلامى وإن كان يبدو أنَّه نظرية استراتيجية للحرب إلا أن الباحث المدقق يستطيع أن يكشف عما ينطوى عليه من مقاصد سلمية نبيلة :

فهذا القصد « إيقاع الرهبة فى قلوب الأعداء » ينطوى على أرفع المعانى السليمة والإنسانية وحقن الدماء ، لأن النتيجة التى يحصل عليها المسلمون من ذلك « نتيجة نفسية » تستلخص من الحسابات التى يجريها العدو عن احتمالات الكسب أو الخسارة التى سوف يواجهها إذا اعتدى على الأمة الإسلامية .

إن « إرادة القتال » أصلا هى « حالة ذهنية ونفسية » ، وإظهار القوة التى ترهب ، بدفع العدو الى تغيير تلك الحالة ، فتضعف إرادته القتالية ويتخلى عن فكرة العدوان وهو مقتنع بأن هزيمته واقعة لا محالة إذا قرر أن يواجه قوة المسلمين التى لا قبل له بها ..

وبعبارة موجزة . فإن إظهار القوة التى ترهب العدو ، ينشىء لدى رجاله اتجاها نفسيا يسيطر عليهم فيدفعهم الى الامتناع عن العدوان أو استخدام القوة . ولقد ظهرت هذه النظرية بأجلى معانيها

فى معارك عصر النبوة ، فمن بين ثمانى وعشرين غزوة قادها الرسول القائد ﷺ بنفسه ، نجد تسع عشرة غزوة منها (١٩ من ٢٨) حققت أهدافها بدون قتال ، إذ فر الأعداء ولم يواجهوا قوة المسلمين ، ونجد أن القتال لم ينشب إلا فى تسع غزوات هى بدر واحد والخندق بنى قريظة وبنى المصطلق وخيبر وفتح مكة[١] وحنين والطائف ، وذلك يوضح كيف كان لظهور القوة الإسلامية أثره فى إيقاع الرهبة فى قلوب الأعداء ودفعهم الى التخلى عن فكرة القتال أو العدوان ؛ وليس ذلك فحسب .

بل إن من هذه الغزوات ماكانت لدى الرسول القائد ﷺ الفرصة السانحة لتوجه ضربة قاضية لأعدائه وإحراز نصر عسكرى ساحق عليهم مثل غزوة فتح مكة .. لكنه ﷺ دخلها بلا قتال وكان ذلك هدفه منذ البداية قبل أن يتحرك من المدينة ، فكان « إظهار القوة التى ترهب العدو وتجرده من إرادة القتال » هو جوهر خطته البارعة ، وأسلوبه الذى التزم به ، والزم به جيش المسلمين عند التنفيذ ..

أرقى منهج للتوفيق بين الغاية والوسيلة :

ويكشف لنا ما تقدم عن أن الردع الإسلامى هو أرقى منهج للتوفيق بين الغاية والوسيلة ، وأن مواجهة الأعداء بأسلوب ينطوى على حقن الدماء هو الحكمة العليا للاستراتيجية الإسلامية ، التى

---

(١) لقد ذكرنا غزوة الفتح هنا رغم أن القتال الذى نشب فيها لا يذكر.

تتفق ببداهة مع جوهر الإسلام الذى هو دين السلام ورسالة الحق والخير والعدل .

ولكى نزيد من إيضاح هذه المقاصد النبيلة للردع الإسلامى نذكر ما ذاقته البشرية على مر العصور من ويلات الحروب ونكباتها بسبب سياسة الالتجاء الى القوة والحرب لفض المنازعات الدولية ، حتى رأينا فيلسوف الحرب «كلاوزفتز» يصوغ نظريته فى الاستراتيجية العسكرية على أساس « الحل الدموى للأزمة » ! ! فكان يقول :

ـ « قد يتصور المحبون للخير بسهولة أنه توجد وسيلة بارعة لنزع السلاح الذى فى يد العدو والتغلب عليه دون إراقة كثير من الدماء ، وإن هذا الاتجاه السليم لفن الحرب ... تلك غلطة يجب أن نمحوها » ! !

ـ « إنه من الضرورى أن تكون « فكرة القتال » أساسا لتفكيرنا ! !

ـ « إن الحل الدموى للأزمة والجهد اللازم لتدمير قوات العدو ، هو المولود الأول للحرب . »

وقد سجل التاريخ الآثار المفجعه لنظرية كلاوزفتز فى الحروب التى قادها من طبقوها وعلموا بتعاليمها مثل نابليون ، وقادة الحرب العالمية الأولى ، فقد وقعوا جميعا فى خطأ الخلط بين الوسيلة والغاية من الحرب ، وجعلوا همهم الأول خوض المعارك الحربية الحاسمة ، وهكذا شهدت ميادين الحرب العالمية الأولى عمليات دموية تشبح المذابح .

القــوة فى نظـرية الـردع

والقوة التى يكون لها فعل الردع والتى يتحقق بها القصد الإسلامى فى إرهاب الأعداء يجب أن تكون على درجة عالية من الكفاية والمقدرة والتفوق بحيث ترجح كفتها على كفة العدو فى ميزان القوى فيمتنع عن العدوان تحسبا للنتائج .

لكن ماذا لو ركب العدو رأسه وقام بالعدوان ؟

إن الإسلام يوجهنا الى أن تظل فكرة الإرهاب والردع قائمة ؟ وذلك بأن تكون القوة الإسلامية قادرة على رد العدوان على نحو يلقن العدو المعتدى درسا لا ينساه ، ويوقع الرهبة فى قلبه ، فلا يفكر مرة أخرى فى أن يعود الى العدوان .

وهذا يدعونا الى بحث الأسس التى تقوم عليها القوة فى نظرية الردع الإسلامية .

أولا : القــوة الشــاملــة :

يجب أن تكون القوة الإسلامية شاملة لكل عناصر القوة ماديا وعسكريا كالقوة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية والنفسية بالإضافة الى القوة الحربية ، فذلك هو ما يفهم من ورد لفظ « قوة » فى الآية الكريمة مطلقا دون تحديد .

وقد ربط الإسلام بين الاستراتيجية العسكرية والاقتصاد برباط وثيق . فالمال هو عصب الحرب وعدة القوة الحربية بلا جدال . وهذا الربط يتضح من ذكر ما يحتاج إليه إعداد القوة من مال

وانفاق فى نفس الآية من سورة الأنفال : ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون**﴾ .

كما يتضح هذا الربط أيضا من فرض الجهاد بالمال مع الجهاد بالنفس كقول الله تعالى :

﴿**الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون**﴾ (التوبة ٢٠) وقوله : ﴿**يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون**﴾ (الصف ١٠) .

وعن أبى داود بإسناد صحيح عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « **جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم** » (أخرجه النسائى) وهكذا يحقق الجهاد بالمال الرهبة فى قلوب العدو من « قوة » المسلمين فإذا رأى العدو أنه سيواجه من المسلمين قوة عسكرية تساندها قوة اقتصادية لا تنفذ ، فسوف لا يستهين بالمسلمين ولا يعلق أمله على التغلب عليهم .

ثانياً : القدرة الهجومية :

وقدرة القوة على إرهاب العدو لا تتحقق إلا إذا تملكت هذه القوة القدرة الهجومية التى تقنع العدو ـ حين يضع حساباته وتقديراته ـ بأنه سوف يكون هو الخاسر لو تحرك بعدوان ، لأن القوة

الإسلامية بقدرتها الهجومية سوف تقهره ، وتنتصر عليه .

وهذه القدرة الهجومية تستوحى من لفظ «الخيل» (ومن رباط الخيل) الذى ينطوى على مفهوم الهجوم مع ما يدل عليه من المعانى العديدة ، كما تستوحى أيضا من ورود لفظ قوة مطلقا غير محدد . فينطوى على القوة الدفاعية والقوة الهجومية ولا يصح أن يعتبر الهجوم مرادفا للعدوان ، لأن الهجوم من الأعمال الحربية ، التى قد يتطلبها الموقف حتى فى إطار الاستراتيجية الدفاعية .

ثالثا : سرعة الحركة والمفاجأة :

وسرعة الحركة والمفاجأة من العناصر التى تمنح القوة الإسلامية القدرة على الردع والإرهاب ، ويعرف العسكريون جميعا أن عبقرية القيادة تكمن فى استغلال هذين العنصرين الاستراتيجيين لإحراز النصر على العدو :

* فالحركة السريعة تولد المفاجأة .

* والمفاجأة بدورها ـ بمالها من آثار نفسية ومادية ـ تمنح قوة دفع للحركة وتمهد لها الطريق للتغلب على مقاومة العدو وبسرعة وفاعلية .

هذا المبدأ يقترب من النظرية الإسلامية التى تربط بين عنصرى الحركة السريعة والمفاجأة وهو ما يتمثل فيما يلى : ـ

* ﴿**رباط الخيل**﴾ فى الآية الكريمة وهو يعنى اليقظة والحراسة والتأهب والاستعداد الدائم للقتال الفورى عند الخطر مع ما يشير إليه تعبير الخيل من سرعة الحركة ومباغتة .

* ومايفهم من قول الله تعالى : ﴿**والعاديات ضبحا . فالموريات قدحا . فالمغيرات صبحا . فأثرن به نقعا ، فوسطن به جمعا**﴾ (العاديات ١ ـ ٥) .

فى هذه الآيات يقسم الله تعالى بخيل الجهاد المسرعات التى يسمع لأنفاسها صوت هو « الضبح » من شدة الجرى ، ويتطاير الشرر من تحت حوافرها من شدة قدحها للأرض الحجرية ، والتى يهجم بها فرسانها على العدو فى وقت الصباح ليأخذوه على غرة ، والتى يكون من شدة جريها إنها تثير غبار الطريق فى وقت الصباح ، فتدخل وسط جمع الأعداء فتشتته ، وتنطوى الآيات على تنبيه المؤمنين ليكونوا على أهبة الاستعداد لمهاجمة من تحدثه نفسه بأضعافهم .. وقد فهم بعض المفسرين المحدثين معنى أوسع من الخيل ، وهو كل مايعدو ويغير ، ويثير الغبار ويرسل الشرر .

رابعا : التــأهب الــدائم :

والتأهب الدائم من العناصر التى تقنع العدو بأنه لا يستطيع مباغتة المسلمين ، والمعروف أن تعرض الجيش للمباغتة يضعف من قدرته وكفاءته القتالية .

من أجل ذلك عنى الإسلام بالحذر واليقظة والتأهب وجعلها من العناصر التى لا تنفصل عن القوة ، فقد خص الله (رباط الخيل) بالذكر مع أنها داخلة فيما قبلها (من قوة) تأكيدا لأهميتها ولما بينها وبين القوة من ارتباط وثيق بحيث لا تستغنى إحداهما عن الأخرى : « فالقوة » فى حاجة الى الحراسة والإنذار المبكر حتى

لا يباغتها العدو فتفقد فاعليتها وقيمتها .. و « المرابطة » فى حاجة الى القوة التى تساندها وتدعمها وتنطلق منها وتعود إليها ..

خامسا : ردع القوى المضادة :

ومما يتميز به الردع الإسلامى أنه لا يستهدف ردع العدو الخارجى الظاهر فقط ، بل يستهدف أيضا ردع أعداء الأمة من القوى المضادة التى تعمل ضدها فى الخفاء والتى قد يكون خطرها ـ إذا غفلت الأمة عنها أو لم تتصد لها ـ أفدح بكثير من خطر العدو الظاهر .. وهذا هو ما يفهم بوضوح من الآية الكريمة من سورة الأنفال التى ذكرناها ، فهذه القوى المضادة هى المعبر عنها بقوله تعالى :

﴿وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ .

وقد فسرها السابقون بالمنافقين الذين يلبسون ثوبا ظاهره الرحمة وباطنه العذاب ، إلا إنها تنطوى بلغة العصر على كل القوى المضادة التى تحقد الأمة وتنفث سمومها فى الخفاء وتروج الشائعات ، وتثير الفتنة وتغرى بالسبية والفساد وتقتل الإرادة الإيجابية .. ومن هذه الفتنة من يكون داخل البلاد الإسلامية وبين صفوف أبنائها ، ومنهم من يكون خارجها يدبر ويخطط ويتحرك بكل الأساليب العلمية للدعاية والحرب النفسية والغزو الفكرى الهدام .

من أجل ذلك فقد اشتملت نظرية الردع الإسلامية على تلك الفتنة من الأعداء الخفيين[1] وأوجبت على الأمة الإسلامية إعداد

---

(١) انظر فصل الأمن ومقاومة لجاسوسية »

كل وسائل القوة التى تردعها وتصون الوطن والجبهة الداخلية من أخطارها ويقتضى ذلك بلغة العصر أنْ تتضافر جهود عدة أجهزة متخصصة داخل الدولة لتحقيق هذا الهدف مثل :

١ ـ قوات الشرطة .

٢ ـ أجهزة مباحث أمن الدولة .

٣ ـ أجهزة الاستخبارات .

٤ ـ أجهزة مقاومة الجاسوسية .

٥ ـ أجهزة الإعلام والتوعية .

٦ ـ قوات الدفاع الشعبى وحراسة المنشآت الحيوية .

وإلى جانب ذلك كله وعى عام لدى أبناء الأمة الإسلامية جميعا بواجبهم فى هذا المجال .

سادسا : تحقيق أكبر قدر من الاكتفاء الذاتى :

ومن مقتضيات الردع الإسلامى أن تحقق الأمة الإسلامية أكبر قدر من الاكتفاء الذاتى فى مجالات بناء القوة ، فتكون المصادر المختلفة لإنتاج القوة فى أرضها ومن إعداد أبنائها وصنعهم ، لأن اعتماد الأمة الإسلامية فى ذلك على غيرها ينطوى على مخاطر كثيرة ويضعها فى مهب تقلبات المصالح والأهواء وموازين القوى العالمية ، ولا يمكنها من الوفاء بالمهمة التى كلفت بها ، ويجعل التفوق فى يد غيرها ، ويجعل القوة التى تملكها مفرغة من مفهوم الردع الحقيقى أو القدرة على تحقيقه .

سابعا : استمرار وجود قوة الردع وتطورها :

ومن الضرورات الحيوية لاستراتيجية الردع فى الإسلام توفير عنصر الاستمرار فى إعداد ووجود قوة الردع وبحيث تملك مقومات الردع فى كل عصر.

(أ) فالتكليف القرآنى للأمة « وأعدوا » قائم وباق الى أن تقوم الساعة ومقتضى ذلك ألا تفتر عزائم الأمة الإسلامية عن إعداد القوة بكل مقومات الردع وعناصره تحت أى ظرف من الظروف .

(ب) وورود لفظ « قوة » مطلقا دون تغييره بشكل معين ، يقضى منطقيا أن تتطور القوة فى شكلها ونوعها وتركيبها وأساليب استخدامها لكى تناسب روح العصر الذى يحتويها .. لأن الأمة الإسلامية إن لم تفعل ذلك ، وتختلف عن مقتضيات عصرها ، فإن قوتها التى أمرها الله بإعدادها تفقد قيمتها وفاعليتها فى إرهاب الأعداء ، فتتعرض الأمة للخطر والهلاك .

وهكذايحتم الإسلام على الأمة الإسلامية أن تأخذ بأسباب التطور العلمى والتقنى (التكنولوجى) فى كل المجالات وألا تختلف عن الركب العلمى والحضارى فى أى عصر من العصور[1] .

إن الله تعالى يريد لهذه الأمة أن تكون لديها القوة المستمرة والمتطورة والقادرة على ردع أعدائها المتربصين بها والذين ينتظرون اللحظة التى تغفل فيها الأمة عن الخطر المحدق بها أو التى يضعف فيها

---

(١) انظر فصل تطوير الجيش .

استعدادها بالقوة ، فينقضون عليها انقضاض الصاعقة . وهذا بعض ما يفهم من قوله تعالى : **﴿ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة﴾** (النساء ١٠٢)

ثامنا : استمرار فكرة الإرهاب عند نشوب القتال :

إذا قام العدو ـ على الرغم من إظهار المسلمين لقوتهم بالعدوان ، فإن نظرية الردع الإسلامي تقضي بأن يقاتله المسلمون مدفوعين الى قتاله بفكرة الإرهاب والارهاب لا يقع في نفسه إلا إذا شعر بالقوة والغلظة التي توجه إليه ، ومعنى هذا ، أن العدو يجب أن يشعر بشدة المسلمين وغلظتهم في القتال الى الحد الذي يوقع في قلبه الرهبة والرعب ، فلا يفكر بعد ذلك في العدوان وهذا أمر تمليه الحكمة كما قال الشاعر الحكيم :

والشر إن تلقه بالخير ضقت به ذرعا ، وإن تلقه بالشر ينحسم

ولعل هذا بعض ما يفسر به قول النبي ﷺ : « **نصرت بالرعب مسيرة شهر** » .. وقول الله تعالى : **﴿إذ يوحي ربك الى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سالقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾**[1] (الأنفال ١٢) .

ولو تأملنا في توجيهات القرآن الكريم في القتال نجدها توجه الى كل ما يحقق فكرة الإرهاب من استخدام العنف والغلظة والشدة ،

(١) **﴿فاضربوا فوق الأعناق﴾** أي فاضربوا الكفار في رؤوسهم أي في المقاتل ـ **﴿واضربوا منهم كل بنان﴾** : البنان : أطراف الأصابع ، أي عطلوهم إن لم تستطيعوا قتلهم لأن من قطعت أصابعه لا يمسك سيفا .

ويبدو ذلك واضحا فى قوله تعالى :

ـ ﴿محمد رسول الله والذين معه أشدآء على الكفار رحمآء بينهم﴾ (الفتح ٢٩) .

ـ ﴿يآ أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين﴾ (التوبة ١٢٣) .

ـ ﴿يآ أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾ (التوبة ٧٣) .

ـ ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها﴾ (محمد ٤) .

ـ ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد﴾ (التوبة ٥) .

ـ ﴿فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون﴾ (الانفال ٥٧) .

ـ ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم﴾ (التوبة ١٤) .

ـ ﴿فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولٓئك جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا﴾ (النساء ٩١)

والواقع أن العنف فى القتال وإن كان أمرا تقتضيه طبيعة المعركة ـ اذ هى صراع بين اثنين يريد كل منهما أن يقتل الآخر قبل أن يقتله ـ إلا أن له فى توجيه الإسلام مقاصد عميقة بعيدة المدى أهمها

إيقاع الرهبة فى قلوب الأعداء الذين اجترؤا على المسلمين واعتدوا عليهم ، وإيقاع الردع الحاسم بهم ، ليمنعهم من العدوان مرة أخرى ، وبذلك تقل فرص اندلاع الحروب ، ويكون التمهيد للسلام . ويتأكد ما سبق أن ذكرناه من أن نظرية الردع الإسلامى وإن كانت نظرية استراتيجية حربية إلا أنها تنطوى على رفع المعانى السلمية وحقن الدماء .

استراتيجية الردع فى القرن العشرين :

ولابد فى هذا المقام من التنويه بما تتميز به نظرية الردع الإسلامى على استراتيجية الردع المعاصرة التى يقول عنها خبراء الحروب إنها « مفتاح استراتيجية القرن العشرين » وخاصة بعد أن تحقق ما يسمى بالتوازن الذرى الذى معناه أن كلا من الكتلتين تملك الأسلحة النووية بقدر متكافىء تقريبا بحيث لا يتوافر لإحداهما تفوق محقق وساحق على الأخرى .

هذا التوازن ، ولدّ اقتناعا لدى الشرق والغرب على السواء بعدم جدوى الحرب وبأن قيامها بينهما هو عملية انتحار رهيبة . لأن كلا منهما يملك القدرة على الردع والانتقام إذا تلقى الضربة المدمرة أولا .

وفى هذا يقول المشير مونتجمرى : « إننى أعتقد أن كلا من الدولتين لن تخاطر بعواقب استخدام الأسلحة النووية لأن الدمار الذى سيترتب على الضربة الانتقامية لأى منهما سيكون مروعا كما أن كلا من الجانبين لن يكون على يقين تام من النصر » .

وما نريد أن نقوله هو أن الخطر كله يكمن فى هذا التوازن ، فإنه (أى التوازن) معرض للخلل ، فلا يبعد أن تتمكن إحدى الكتلتين من الحصول على تفوق ساحق فى مجال الأسلحة النووية يرجح كفتها تماما فى ميزان القوى بحيث يكون لديها قوة ضاربة كافية مع قدرة أكيدة على صد الضربات المعادية .

فاختلال التوازن ـ وهو أمر وارد وغير مستبعد ـ سوف يؤدى حتما الى اندلاع حرب نووية يشنها الجانب المتفوق لإبادة خصمه بضربة سريعة مفاجئة .. أما الردع الإسلامى فإنه يتميز بأنه إذا تملكت الأمة الإسلامية للقوة التى تتفوق على أعدائها حتى أصبح ميزان القوى فى صالحها فإن ذلك لا يغريها باستخدام القوة ضد أعدائها ماداموا يمتنعون عن العدوان ..

أى أن الأمة الإسلامية لا تتعدى حدود الردع مادام يحقق الهدف منه وهو إخافة العدو ومنعه من العدوان ، ولا تقاتل إلا لرد الاعتداء : ـ

١ ـ فالقصد من إعداد القوة فى الإسلام هو إرهاب العدو ليمتنع عن استخدام القوة للعدوان ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم**﴾ (الأنفال ٦٠) .

٢ ـ والعتداء ليس غاية من غايات الحرب فى الإسلام ، والقتال لم يشرع فى الإسلام إلا إعلاء لكلمة الله ودفاعا عن الأمة الإسلامية ضد الاعتداء ، ﴿**وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين**﴾ (البقرة ١٩٠) .

والخوف من حدوث خلل فى التوازن العسكرى هو السر وراء

سباق التسلح الرهيب الذى يعانى منه العالم اليوم نتيجة لفقدان الثقة بين الأمم وانتشار الأطماع التوسعية والاستعمارية ، وسيادة منطق القوة لتحقيق المصالح بأساليب لا أخلاقية .

لكن الأمر مع الأمة الإسلامية مختلف تماما ، فإن تمسكها بتعاليم دينها الذى يحرم الاعتداء ولا يقاتل إلا لرد العدوان . يبعث فى الأمم المسالمة التى تريد أن تعيش فى سلام ، الطمأنينة والثقة صدق نوايا المسلمين ، فتتجه بطاقاتها ـ فى ظل هذا الأمن من الغدر ـ نحو ما فيه الخير لها والخير للبشرية جمعاء لا إلى التسابق فى التسلح الذى يرهق اقتصادها ويزيد من حدة التوتر . ويغرى بإشعال الحروب .

---

(١) قال هارولد براون وزير الدفاع الأمريكى فى ١٩٨٠/١٢/٩ : ـ « إن الولايات المتحدة الأمريكية مضطرة للاستمرار فى سباق التسلح مع السوفييت الذين يستمرون فى إنتاج أسلحة تفوق احتياجاتهم الفعلية بهدف زيادة تفوذهم فى العالم » (جريدة الأهرام القاهرية) .

استطلاع أحوال العدو

كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى سعد بن أبى وقاص ، وهو يتجهز لمعركة القادسية وصية يقول فيها : « .. وإذا وطئت ادنى أرض العدو ، فأذك العيون بينك وبينهم ، ولا يخف عليك أمرهم ، وليكن عندك من العرب أو من أهل الارض من تطمئن إلى نصحه وصدقه ، فإن الكذوب لا ينفعك خبره ، وإن صدق فى بعضه . والغاش عين عليك وليس عينا لك ، وليكن منك عند دنوك من أرض العدو ، أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم ، فتقطع السرايا امدادهم ومرافقهم ، وتتبع الطلائع عوراتهم ، وانتق للطلائع أهل الرأى والبأس من أصحابك ، وتخير لهم سوابق الخيل . فإن لقوا عدوا كان أول من تلقاهم القوة من رأيك ، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلاد .. ولا تبعث طليعة ولا سرية فى وجه تتخوف فيه ضيعة ونكاية .. »

● حقا انها وصية ناطقة بعناية عمر رضى الله عنه باستطلاع احوال العدو وإدراكه لما يحققه الاستطلاع من فوائد لصالح المعركة ولجيش المسلمين .. والواقع أن أمير المؤمنين هنا يقدم لنا انموذجا لتطبيق مبادئ العسكرية الاسلامية التى ارساها رسول الله ﷺ وعلمها للمسلمين .. وفى مجال الاستطلاع هناك مبادئ مقررة تقترب منها مبادئ الاستطلاع فى العلم العسكرى الحديث :

اولاً : الاستطلاع أمــر حــيوى :

فالاستطلاع فى نظر الاسلام (ضرورة حيوية) سواء للتخطيط فى جميع مستوياته الاستراتيجية والتكنيكية أو لادارة المعركة .. ولابد أن يسعى القائد إلى معرفة اكبر قدر من المعلومات عن عدوه من حيث كفاءته القتالية واسلحته واساليب قتاله ، وعن مصادر قوته من النواحى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وعن اهدافه ونواياه الى غير ذلك من المعلومات ..

وهذا هو ما يقرره العلم العسكرى فتنص قوانين خدمة الميدان على ما يلى : « يؤسس القائد خطته فى الميدان على ما لديه من معلومات ، وكلما كانت المعلومات وافية ودقيقة ، كان الامل فى نجاح الخطة كبيرا .. لذلك فمن الواجبات الضرورية لجميع القادة اتخاذ كل ما من شأنه أن يزودهم بالمعلومات عن العدو ونواياه وحركاته الى غير ذلك من المعلومات .. »

● يقول الاستاذ العقاد[(١)] : «كان النبي عليه السلام عليما بمزايا الاستطلاع ومعنيا به غاية العناية ، يحسب العدو المجهول ، كالعدو المستتر بأسوار الحصون ، فى حمى من الجهل به ، قد يحول دون الاستعداد له بالعدة الضرورية فى الوقت الضرورى ، ويحول من ثم دون الانتصار عليه » .

---

(١) عباس محمود العقاد ــ عبقرية محمد .

ثانياً : قيام القائد بالاستطلاع الشخصي :

ويقضى هذا المبدأ بأن يقوم القائد بنفسه بالاستطلاع ، سواء فى مرحلة التحضير للمعركة أو فى مرحلة ادارتها ، حتى يرى بعينيه ـ لا بعيون غيره ـ ما يهمه رؤيته مما يزيد من وضوح الرؤية عنده ، فيأتى التخطيط أو القرار بعد ذلك سليما إلى أقصى حد ممكن . ولقد ضرب الرسول القائد ﷺ المثل فى هذا المجال :

● فعندما اقترب المسلمون من بدر انطلق عليه الصلاة والسلام وبصحبته ابوبكر الصديق رضى يالله عنه امام الجيش للاستطلاع . حتى وقف على شيخ من العرب ، فسأله عن قريش وعن محمد واصحابه ، وما بلغه عنهم ، فقال الشيخ : لا اخبركما حتى تخبرانى ممن انتما .. فقال له رسول الله ﷺ : إذا اخبرتنا اخبرناك ، فقال : وذاك بذاك ، قال : نعم ، قال الشيخ : فإنه بلغنى أن محمدا واصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدقنى الذى اخبرنى فهو اليوم بمكان كذا وكذا (للمكان الذى به رسول الله ﷺ) وبلغنى أن قريشا خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان الذى حدثنى صدقنى . فهم اليوم بمكان كذا وكذا (المكان الذى به قريش) .

فلما فرغ من خبره قال : ممن انتما ؟ فقال رسول الله ﷺ : نحن من ماء ، ثم انصرف عنه . والشيخ يقول : ما من ماء ؟ أمن ماء العراق ؟!

ثالثاً : السرية فى الاستطلاع :

ومن مبادئ الاستطلاع أن تراعى السرية فيه حتى لا يكشفه

العدو ، ولعلنا لاحظنا فى واقعة قيام الرسول القائد ﷺ فى الاستطلاع الشخصى قبل بدر كيف حرص عليه السلام على اخفاء هويته للشيخ الذى قابله .

(١) فرأينا أولا كيف انه لما أراد أن يسأل الشيخ ، لم يسأله عن اخبار قريش فقط ، بل سأله عن « قريش وعن محمد واصحابه » . فهو بهذا الاسلوب الذى قد (غطى) على هويته ولم يدع للشيخ فرصة لمعرفتها عن طريق الاستنتاج لو كان سأله عن قريش فقط .

(٢) وثانيا رأينا ان الرسول ﷺ حين أجاب عن سؤال الشيخ : ممن انتما ؟ قال : (نحن من ماء) وهو رد ذكى بارع لا يكشف عن هويته وان انطوى على خبر صادق . (المقصود بالماء هو المنى) .

● **سرية عبد الله بن جحش للاستطلاع :**

وظهر مبدأ السرية بأجلى صورة حين بعث الرسول ﷺ عبد الله ابن جحش فى مهمة استطلاع فى شهر رجب من السنة الثانية للهجرة وقبل غزوة بدر بشهرين ومعه ثمانية (أو اثنا عشر فى رواية اخرى) من المهاجرين وكتب له كتابا . وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضى لما أمره به ، ولا يستكره من اصحابه احدا .

فلما سار عبدالله بن جحش يومين ، فتح الكتاب ، فنظر فيه . فإذا فيه :

« إذا نظرت فى كتابى هذا ، فأمض حتى تنزل (نخلة) (بين مكة والطائف) فترصد بها قريشا ، وتعلم لنا من اخبارهم » .

● فلما نظر عبدالله بن جحش فى الكتاب قال : سمع وطاعة . ثم

قال لأصحابه : قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى نخلة أرصد بها قريشا ، حتى آتيه منها بخبر ، وقد نهاني أن أستكره أحدا منكم . فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع . فأما أنا ، فماض لأمر رسول الله ﷺ .. فمضى ومضى معه اصحابه لم يتخلف عنه منهم احد[1] .

● ونستخلص من هذا الاسلوب كيف روعيت السرية بكل احكام ودقة :

١ ـ فعبد الله بن جحش واصحابه كانوا لا يعلمون عن أمر مهمتهم شيئا حتى ولا الدور الذي سيقومون به لان ذلك كله كان في طي الرسالة المغلقة التي أمره الرسول ﷺ ألا ينظر فيها إلا بعد أن يسير يومين .

٢ ـ والمفرزة برمتها لم يسأل واحد منها ـ بما فيهم الامير ـ عن طبيعة المهمة . وانما كانت طاعة مطلقة من الجنود نحو الامير إن دلت على شئ فإنما تدل على رسوخ وعى السرية والأمن في قلوبهم .

٣ ـ وقد أراد الرسول ﷺ أن يخفى عن أهل المدينة المسلمين وغير المسلمين ، أمر هذه السرية حتى لا يتسرب أى خبر إلى الاعداء فتفسد الخطة المترتبة على ذلك .

● وللرسول القائد ﷺ حكمة في كتمان أمر تلك السرية عمن يحيطون به ، فليس ببعيد أن يكون منهم جاسوس من قبل قريش ، ولا أن يكون منهم من يبوح بالخبر عن سذاجة ، لا يريد به السوء . أو لا يدرك ما في البوح به من الخطر المنظور ، ولا يبعد أن يكون

---

(١) سيرة ابن هشام .

فيهم ضعيف النفس يفشى السر بتأثير مال أو ضغط .. وفى هذا تحقيق كامل لسنته صلوات الله وسلامه عليه : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان .. » .

● وهكذا يقرر الرسول ﷺ أن استطلاع احوال العدو يجب أن يحاط بالسرية التامة ، وهذا حق ، لأن العدو إذا احيط علما بذلك ، فسوف يستعد استعدادا تاما لحرمان من يقومون بالاستطلاع من الحصول على المعلومات التى يريدونها ، وبذلك لا يتحقق الغرض من الاستطلاع ، فضلا عما ينتظر حدوثه من خسائر مؤكدة فى أرواح رجال الاستطلاع ، أو من وقوعهم فى الاسر . فيكشف العدو الخطط والنوايا ..

● وفى الحرب الحديثة يحاط الاستطلاع بكل أسباب السرية . ففارز الاستطلاع مثلا تقوم بعملها فى جنح الليل غالبا ، فإذا اضطرت إلى العمل نهارا بسبب ظروف المعركة نراها تراعى كل اساليب الاخفاء والتمويه والحذر .

رابعاً : اختيار افراد الاستطلاع بطريقة التطوع :

لقد أوصى الرسول القائد ﷺ عبد الله بن جحش ألا يكره أحدا من المسلمين على المسير معه ، فامتثل للأمر ، وعرضه على اصحابه وهو يقول : « وقد نهانى ان استكره احدا منكم ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ومن كره ذلك فليرجع » .. وهكذا يقرر الرسول ﷺ مبدأ جديدا من مبادئ الاستطلاع هو أن يقوم بالاستطلاع الراغبون فيه ، فيكون اختيارهم بطريقة التطوع ، وهذا المبدأ يستحق أن نتأمله ونتدبره لما ينطوى عليه من عمق

وحكمة وبعد نظر :

(١) فإن هناك فرقا كبيرا بين الخروج (للقتال) والخروج (للاستطلاع) ..

فالرجل إذا خرج مكرها على القتال ، فقد يقاتل لانه مهدد بالموت المؤكد سواء فى القتال أو إذا حاول الفرار .

(٢) ولكن إذا خرج الرجل (للاستطلاع) مكرها ، فلا يمكن أن يفيد وسوف يكون خروجه بلا جدوى ، بل ربما يحرف الاخبار عمدا . أو يتلقاها بغير عناية ، أو يطلع الاعداء على اسرار اصحابه وهم عنه غافلون .

● وفى الحرب الحديثة . يطبق هذا المبدأ ، فإذا أرادت قيادة الجيش بعث مفرزة للاستطلاع فانها تختار القائد الذى ستناط به المهمة . ثم تترك له الحرية المطلقة فى اختيار مرافقيه ، فنراه يختار من يرغب فى الخروج معه ، ومن يثق بهم .. ويطبق هذا المبدأ كذلك فى كل عمل من الاعمال القتالية التى تنفرد بطابع خاص ، ومن ذلك العمليات الخاصة للفدائيين (المغاوير) ورجال الصاعقة الذين يكلفون بمهام خطيرة وشاقة تتعرض فيها حياتهم لأشد الاخطار ، فيتطلب القيام بها قدرا كبيرا من الشجاعة والاقدام والجرأة والغيرة .. فهل يمكن لمن يخرج لمثل تلك الاعمال (مكرها) أن يحقق شيئا من الاهداف المرجوة .. وهكذا تتجلى حكمة رسول الله ﷺ فى قوله : ولا تكرهن احدا من اصحابك على السير معك .

خامساً : خصائص رجال الاستطلاع :

بالاضافة إلى شرط الرغبة فى القيام بالاستطلاع ، تقرر

العسكرية الاسلامية عدة شروط يجب مراعاتها عند اختيار رجال الاستطلاع نذكر منها ما يلي :

(١) قوة التحمل :

روى ابوالقاسم البغوى عن سعد بن أبي وقاص قال : بعثنا ﷺ فى سرية قال : « لأبعثن عليكم رجلا اصبركم على الجوع والعطش » ، فبعث علينا عبدالله بن جحش رضى الله عنه .

(٢) الشجاعة والنجدة والذكاء وخفة الحركة :

وهى تتمثل فى وصية عمر بن الخطاب لسعد بن ابى وقاص السابق ذكرها : « وانتق للطلائع أهل الرأى والبأس من اصحابك وتخير لهم سوابق الخيل » .

● وقد سار المسلمون بعد عصر النبوة على هذا النهج . فكانوا « يختارون للطلائع كل جندى عرف بالشجاعة والنجدة . ويحملونهم على سوابق الخيل ، جيدة الحوافر والظهور ويرسلونهم متخففين من كل ثقل يعقوهم ، ليس مع احدهم إلا قوسه وجعبته ، بها عشر نشابات أو عشرون (سهام) وقد سمطوا حقائبهم خلفهم »[١]

سادساً : صغر حجم مفارز الاستطلاع :

ويجب أن تكون مفرزة الاستطلاع قليلة العدد ، فذلك مطلب ضرورى يتفق مع دواعى السرية والكتمان ، ويقلل من فرص اكتشاف العدو لها ، ولذلك تنص قوانين خدمة الميدان على أن (تكون مفارز الاستطلاع صغيرة ما أمكن) .

---

(١) المرثمى ـ مختصر سياسة الحروب ـ مخطوط (ورقة ٣٤) .

● وقد رأينا كيف أن سرية عبدالله بن جحش كانت تتألف من ثمانية من المهاجرين (أو ١٢ فى رواية اخرى).

وقبل المعركة فى بدر بعث الرسول القائد ﷺ عدة مفارز للاستطلاع تتألف الواحدة منها من رجلين أو من عدد لا يزيد على أصابع اليدين كما يلى :

(١) مفرزة تتكون من طلحة بن عبيدالله وسعيد بن زيد لاستطلاع اخبار قافلة قريش على طريق الشام.

(٢) مفرزة تتكون من رجلين الى (بدر) للحصول على معلومات عن قريش وعن قافلتها.

(٣) مفرزة تتكون من على بن ابى طالب والزبير بن العوام وسعد بن ابى وقاص فى نفر من اصحابه وصلت الى ماء بدر وعادت بغلامين لقريش فاستنطقهما الرسول ﷺ (استجوبهما) فعلم أن قريشا وراء الكثيب «بالعدوة القصوة» وان القوم بين التسعمائة والألف..

(٤) ومفرزة من رجلين وصلا ماء بدر فسمعا جارية تطالب صاحبتها بدين عليها والثانية تجيبها : انما تأتى العير غدا أو بعد غد، فأعمل لها ثم أقضيك الذى لك» فعاد الرجلان فأخبرا الرسول عليه الصلاة والسلام بما سمعا.

سابعاً : ضرورة تجنب القتال :

كان واضحا من تعليمات الرسول ﷺ ان مهمة عبدالله بن جحش كانت (الاستطلاع) وليس (القتال) : «فترصد بها قريشا وتعلم لنا من اخبارهم» والذى حدث أنه بعد أن قرأ عبدالله بن جحش رسالة النبى ﷺ، مضى ومضى معه اصحابه خلا سعد

بن أبي وقاص الزهري وعتبة بن غزوان ، اللذين ذهبا يطلبان بعيرا لهم ضل ، واسرتهما قريش ، وسار عبدالله ومن معه حتى نزلوا (نخلة) هناك مرت بهم عير لقريش تحمل تجارة عليها عمرو بن الخصرمي ، وكان يومئذ آخر رجب ، وذكر عبدالله بن جحش ومن معه ما صنعت قريش بهم ، وما حجزت من أموالهم . وتشاوروا وقال بعضهم لبعض : « والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ، ليدخلن الحرم ، فليمتنعن منكم به ، ولئن قتلتموهم ، لتقتلنهم فى الشهر الحرام » .

● ترددوا وهابوا الاقدام ، ثم شجعوا انفسهم واجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم ، واخذ ما معهم ، ورمى احدهم عمرو بن الخصرمي بسهم فقتله ، وأسر المسلمون رجلين من قريش ، واقبل عبدالله بن جحش بالعير والاسيرين حتى قدموا المدينة على الرسول ﷺ ، فلما رآهم قال لهم : « ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام » ووقف العير والاسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا واسقط فى يد عبدالله بن جحش واصحابه ، وعنفهم اخوانهم من المسلمين بما صنعوا ، وانتهزت قريش الفرصة فأثارت ثائرة الدعاية بأن محمدا واصحابه استحلوا الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، واخذوا فيه الاموال واسروا الرجال ، ودخلت اليهود تريد اشعال نار الفتنة !

● إذ ذاك نزل قول الله تعالى : ﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج اهله منه أكبر عند الله والفتنة اكبر من القتل ولا**

يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ﴾ (البقرة : ٢١٧) .. وسرى عن المسلمين بنزول القرآن بهذا الامر ، وقبض النبي ﷺ العير والاسيرين ، فافتدتهما منه قريش فقال : « لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا فإنا نخشاكم عليهما . فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم » .. وقدم سعد وعتبة وأفداهما النبي ﷺ من الاسيرين (أى تم تبادل الاسرى) .

وهكذا يتضح لنا مبدأ ان مفارز الاستطلاع لا تقاتل :

(١) أولا : من طبيعة المهمة المحددة بوضوح : « فتعلم لنا من اخبارهم » .

(٢) ثانيا : من أنه عليه الصلاة والسلام بعث السرية فى شهر رجب وهو من الاشهر الحرم التى يحرم القتال فيها .

(٣) وثالثا : من استنكاره عليه الصلاة والسلام لما حدث من قتال حين قال : « ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام » .

● والعلم العسكرى يقرر أن مفارز الاستطلاع لا تقاتل إلا دفاعا عن النفس ، والسبب فى ذلك هو أن القتال فضلا عن انه يهدم جانب السرية ، فهو يعيق المفرزة عن اداء مهمتها التى خرجت من أجلها .

ثـامناً : تكـريم رجـال الاستطلاع :

روى أن الرسول ﷺ سمى عبدالله بن جحش (امير المؤمنين) وينطوى ذلك على تكريم وتشريف لرجال الاستطلاع بالنظر الى خطورة تلك المهمة وصلتها الوثيقة بأمن الأمة الاسلامية وسلامتها . ونرى هذا المبدأ أيضا من حديث حذيفة بن اليمان حين كلفه الرسول

ﷺ باستطلاع اخبار العدو . يقول حذيفة : رأيتني ليلة الاحزاب مع رسول الله ﷺ فقال : « **من يذهب إلى هؤلاء القوم فيأتينا بخبرهم ، أدخله الله الجنة** » .

وفي نفس الحديث ورد أيضا قوله ﷺ : « **هل من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم على أن يكون رفيق في الجنة ؟** » .

إدارة المعركة
ضد عـــدو متفوق

ان منتهى امل أية دولة عصرية هو أن تحصل على النصر على عدوها ـ إذا وقعت الحرب ـ بأقل الخسائر وفى أقصر وقت ، وقد زاد من اهمية هذا الهدف التقدم المذهل فى العلوم والتكنولوجيا . وما احدثه من تطور رهيب فى اسلحة الحرب ووسائل التدمير وفى شكل الحرب وفنون القتال .

واذا كان الحصول على النصر بأقل الخسائر هو هدف القيادة فى الدولة المتقدمة ، فهو من باب اولى ـ بالنسبة للدول النامية أو محدودة القدرات والموارد ـ يعد أهم واكبر اهدافها ، وذلك حتى لا تستنزف مواردها وقواها من أثر الحرب .

على أن الامر يزيد اهمية وخطورة ، لو حكمت ظروف الدولة الاستراتيجية بأن تتصدى لعدو متفوق عليها فى القوة .. فهنا يصبح الحصول على النصر وبأقل الخسائر قضية مصير ، ومسألة حياة أو موت . لابد ان توضع على قمة الاهداف الاستراتيجية لتلك الدولة . ولابد ان تسخر كل طاقاتها المادية والمعنوية لتحقيقه .

لعل هذا هو احد الدروس العظمى التى تستخلص من هدى رسول الله ﷺ فى ادارته للمعارك ضد اعدائه .

ولقد برز هذا الدرس جليا واضحا منذ اللحظة الاولى للصراع مع المشركين أى فى غزوة بدر الكبرى .

فلقد كان حجم التحدى الذى واجه المسلمين فى بدر هائلا .

فبدر اول معركة حاسمة بين المسلمين والمشركين . وسوف تكون لنتائجها آثار بعيدة المدى على الدعوة وعلى مستقبلها وعلى هيبة المسلمين وهذا ما عبر عنه الرسول ﷺ حين هتف بربه : « **اللهم ان تهلك هذه العصابة من اهل الاسلام لا تعبد فى الارض** » .

ومن حيث حساب المقارنة بين القوتين . كان تفوق العدو ساحقا على المسلمين ، فقد بلغت قوة المسلمين (٣٠٥) رجلا وكان معهم فرسان وسبعون بعيرا . بينما بلغت قوة المشركين (٩٥٠) رجلا وكان معهم مائتا فرس يقودونها وعدد كبير من الابل .. أى ان تفوق المشركين فى العدد كان اكبر من نسبة ثلاثة الى واحد . وتفوقهم فى الخيل (سلاح الفرسان) كان بنسبة ساحقة مذهلة (١٠٠ : ١) وكذلك كان تفوقهم فى اسلحة القتال بطبيعة الحال .

وكان الافق الاستراتيجى العام فى شبه الجزيرة العربية مشحونا بالتربص والعداء للاسلام والمسلمين سواء من ناحية قريش التى تريد القضاء على الدين فى موطنه الجديد بعد فشلها فى القضاء عليه بمكة أو من ناحية القبائل المجاورة للمدينة . أو المشركين والمنافقين فى المدينة . أو اليهود . لقد كان كل هؤلاء يتربصون بالمسلمين الدوائر ويحاولون انتهاز فرصة سانحة للايقاع بهم وحرمانهم من الحرية فى نشر دعوتهم .

نصر الله :

فى هذه الظروف الصعبة دخل المسلمون بقيادة الرسول ﷺ المعركة فانتصروا على عدوهم باذن الله واصبحوا ظاهرين ، وكان

نصرا عجيبا مدهشا يستحق أن نحلل اسبابه لكى ننتفع بها فى حاضرنا ومستقبلنا .

١ ـ المحافظة على الاسرار :

من المبادئ المعروفة ان الامم التى تحافظ على اسرارها هى الامم التى تنتصر ، وان الامم التى لا تحافظ على اسرارها لا يمكنها احراز النصر .

ولعل هذا هو اول ما يطالعنا من دروس .

٢ ـ مراعاة مبدأ السرية والامن والوقاية :

ففى مسير الاقتراب راعى الرسول ﷺ ان يكون تشكيل المسير فى هيئة مقدمة تقوم بالاستطلاع والوقاية ، ويليها القوة الرئيسية للجيش ، ثم مؤخرة بإمرة قيس بن ابى صعصعة لوقاية ظهر الجيش .

وحينما اقترب الجيش من بدر ، انطلق الرسول ﷺ امام قواته وبصحبته ابوبكر حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش وعن محمد واصحابه وما بلغه عنهم ، قال الشيخ : « لا اخبركما حتى تخبرانى ممن أنتما ؟ » قال النبى ﷺ : « إذا اخبرتنا اخبرناك » .

علم الرسول من شيخ العرب ان عير قريش قريبة منه ، فقال له : « نحن من ماء »[١] ثم انصرف وصاحبه عنه والشيخ يقول : « ما من ماء ؟ أمن ماء العراق » وهكذا لم يخبره الرسول عن هويته حتى لا تعلم قريش بمواضع المسلمين .

---

(١) أى من ماء دافق وهو المنى (السيرة الحلبية جـ ٢ ص ١٥١) .

وعن عائشة رضى الله عنها ان الرسول امر بالاجراس تقطع من اعناق الابل يوم بدر . حتى لا يسمع لها صوت .

٣ ـ التخطيط على اساس احدث المعلومات وادقها :

ان المعلومات الحديثة والدقيقة من اهم المطالب الحيوية للتخطيط الجيد عامة وللتخطيط الحربى خاصة ، فحين اقترب المسلمون من بدر ارسل الرسول ﷺ مفرزتى استطلاع للحصول على معلومات عن قوة قريش ومواضعها .

المفرزة الاولى :

مؤلفة من على بن ابى طالب والزبير بن العوام وسعد بن ابى وقاص فى نفر من اصحابه . استطاعت الوصول إلى ماء بدر . وعادت ومعها غلامان فاستنطقهما الرسول فعلم منهما ان قريشا وراء الكثيب (بالعدوة القصوى) . ولما اجابا بأنهما لا يعرفان عدد رجال قريش . سألهما : (كم ينحرون يوميا ؟) فاجابا : (يوما تسعا ويوما عشرا) فاستنبط من ذلك انهم بين التسعمائة والالف . وعرف من الغلامين كذلك ان اشراف قريش جميعها خرجوا للقتال .

المفرزة الثانية :

مؤلفة من رجلين من المسلمين وصلا ماء بدر فسمعا جارية تطالب صاحبتها بدين عليها والثانية تجيبها : (انما تأتى العير غدا أو بعد غد ، فأعمل لهم ثم اقضيك الذى لك) . فعاد الرجلان فأخبرا الرسول بما سمعا .

اضف إلى ذلك حرص الرسول القائد ﷺ على القيام

بالاستطلاع بنفسه حينما انطلق امام الجيش ومعه ابوبكر ولقيا شيخ العرب ــ كما ذكرنا ــ فعرف منه ان عير قريش قريبة منه .

٤ ــ قيادة موحدة وهدف واحد :

كان الرسول ﷺ هو القائد العام للمسلمين فى بدر ، وكان المسلمون يقاتلون كرجل واحد لغاية واحدة ، وهذا عامل مهم من عوامل النصر فى الحرب .

اما المشركون فلم يكونوا كذلك ، فلم يكن لهم قائد عام ، فقد كان اكثر سراة قريش مع الجيش ، ولكن البارزين من هؤلاء على ما يظهر هما رجلان : عتبة بن ربيعة وابوجهل ، وقد ثبت انهما لم يكونا على رأى واحد حول مبدأ البقاء لقتال المسلمين ولم يكن لهما هدف واحد ، بل انهما كانا اقرب إلى العداوة منهما إلى الاخاء . لذلك فقد طغت الانانية الفردية على المصلحة العامة اثناء القتال . وحاول كل رجل من رجالات قريش ان يظهر نفسه بطلا لتتحدث العرب عنه ، دون أن يكترث بأثر ذلك على نتائج المعركة .

٥ ــ الشورى فى التخطيط للمعركة :

ان الرسول القائد ﷺ لم يشأ أن يبت فى أمر الدخول فى معركة مع المشركين حتى يستشير اصحابه فوجد منهم استعداد للقتال رغم تفوق العدو ، فقرر دخول المعركة .

كذلك نزل على مشورة الحباب بن المنذر وانتقل بالجيش إلى حيث اشار بحيث أصبح المسلمون يتحكمون فى مياه بدر ويحرمون العدو منها .

وبذلك يضع الرسول القائد مبدأ هاما فى اتخاذ القرارات

والتخطيط ، هو الاخذ بالمشورة الصالحة وهو الذى أمره الله تعالى بذلك فى قوله تعالى : ﴿**وشاورهم فى الأمر**﴾ . والرسول حين يطبق قاعدة الشورى يعلمنا ان الاخذ بالمشورة الصالحة آية من آيات حسن القيادة يقترن بآية الابتكار والانشاء ، لان القيادة الحسنة هى القيادة التى تستفيد من خبرة الخبير كما تستفيد من شجاعة الشجاع . وهى التى تجند كل ما بين يديها من قوى الآراء والقلوب والاجسام .

ومن وجهة نظر علم الادارة والاستراتيجية العسكرية ايضا فان الشورى تحقق مبدأ هاما هو (اشتراك المنفذين فى عملية التخطيط) ، وهو من اهم دعائم الكفاية فى الاداء ، وفى انجاز الاعمال وتحقيق الاهداف .

وليس من شك فى ان هناك فرقا كبيرا بين ان تكتفى القيادة باصدار القرارات التى يتعين على المرؤسين تنفيذها ، وبين ان تحرص على اشراك هؤلاء المرؤسين فى عملية التخطيط قبل ان تصدر قرارات التنفيذ ، فالاسلوب الثانى يحقق فوائد جمة :

(١) فهو يجعل المنفذين اكثر تفهما للاهداف التى يراد تحقيقها .

(٢) ويضمن اهتمامهم وحماستهم وايجابيتهم فى تنفيذ الخطة التى (ساهموا فى وضعها) .

(٣) ويضمن كذلك (واقعية الخطة) ، لانها انبثقت من (الطبيعة والواقع الميدانى) وهذا بالتالى يضمن الا تتعثر الخطة اثناء التنفيذ بسبب احتوائها على مهام يصعب تنفيذها .

والواقع ان القيمة الحقيقية لاية خطة . تكمن فى واقعيتها

وامكانية تنفيذها ، وقد اجمع الخبراء العسكريون وعلماء الادارة على ان « الخطط ذات الشأن هى تلك التى يكون لديها فرصة اكبر فى التنفيذ ، وتأسيسا على هذا ، فان مسئولية اجهزة التخطيط لا تنحصر فى مجرد وضع الخطط ، وانما يلزم ان تتأكد من أن هذه الخطط قابلة للتنفيذ بحيث تتحقق الاهداف المتوخاة »[1] .

٦ ـ احراز المبادأة فى اختيار أرض المعركة :

ان من اهم ما يسعى اليه القائد المحنك ، هو ان يجر عدوه إلى الدخول معه فى معركة فوق أرض من اختياره هو ، فإذا افلح فى ذلك فانه يكون قد احرز (نقطة تفوق) على عدوه ، لانه سوف يستغل طبيعة تلك الارض وتضاريسها ومواردها وخصائصها الجغرافية التى رأى وقدر ـ بحكم علمه وخبرته ـ انها ستساعده على التغلب على عدوه فى المعركة .

فقد اتخذ الرسول ﷺ ـ بعد ان نزل على مشورة الحباب بن المنذر ـ معسكر المسلمين للمعركة فى موضع يتحكم به المسلمون فى الماء ويحرمون عدوهم منها ، وبذلك خلقوا له موقفا من اشد المواقف قسوة فى حرب الصحراء .

٧ ـ اختيار تشكيل القتال الذى يضمن سيطرة القائد :

لقد كانت قوة المسلمين محدودة العدد وكانت تواجه قوة تعادل ثلاث امثالها ، وهنا تعتبر سيطرة القائد مطلبا حيويا ، فالسيطرة تكفل حسن توجيه الطاقات والامكانات نحو الهدف المنشود .

---

(١) أنظر «أصول الادارة العامة ـ د . عبدالكريم درويش ـ د . ليلى تكلا .

وتمكن من الافادة منها واستثمارها إلى اقصى حد ، كما تضمن تحقيق مبدأ (الاقتصاد فى القوى) فلا يذهب من الجهد أو الطاقة أو الوقت شئ بلا طائل .

والرسول القائد ﷺ قد حقق السيطرة بصورة محكمة وشاملة :

فنظم الجيش فى كتيبتين ، كتيبة المهاجرين بقيادة على بن ابى طالب ، وكتيبة الانصار بقيادة سعد بن معاذ .

وشكل الكتائب فى صفوف منتظمة حرص على التأكد من تسويتها بنفسه ، فانه حينما وجد رجلا اسمه سواد خارجا عن الصف ، اصلح من وضعه وقال له : (استو يا سواد) .

واتخذ الرسول القائد لنفسه مركز قيادة محددا ويشرف على المعركة ويستطيع منه ادارتها باحكام .

ولم يقاتل المسلمون باسلوب الكر والفر المعروف والذى كانت تقاتل به قريش ، بل اتبعوا اسلوب القتال بالصفوف ، وهو اسلوب يضمن السيطرة للقائد على رجاله ، كما انه يؤمن له احتياطا للطوارئ يعالج به المواقف التى ليست بالحسبان مما يضمن (استمرار) السيطرة ، اما اسلوب الكر والفر فيجعل القائد يفقد السيطرة ولا يؤمن له أى احتياط للطوارئ .

واخيرا وليس آخرا اصدر الرسول القائد ﷺ تعليماته القتالية : « ان دنا القوم منكم فانضحوهم بالنبال واستبقوا نبلكم ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم » فجاءت محتوية على كل ما يضمن له السيطرة التامة على الجيش فى مراحل القتال المختلفة وعلى ما يجعل المسلمين لا يقومون بأى عمل إلا بأمر منه كما سنوضحه فيما بعد ..

٨ ـ استغلال طاقات كل سلاح الى اقصى حد ممكن :

حدد الرسول ﷺ فى تعليماته القتالية مراحل استخدام اسلحة القتال فى احكام ووضوح بحيث يضمن استغلال طاقات كل سلاح إلى اقصى حد ممكن :

فيبدأ المسلمون أولا بقذف النبال : « ان دنا القوم منكم فانضحوهم بالنبال » والنبال هى السلاح « بعيد المدى » .

فاذا ما اقترب العدو إلى حد (الالتحام) يتحولون الى السيف (سلاح الالتحام) : « ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم » .

٩ ـ الاقتصاد الشديد فى (الذخيرة) :

« واستبقوا نبلكم » .. هذا الامر معناه تأخير قذف السهام حتى يقترب العدو ، ولما كانت النبال أصلا قليلة العدد لقلة عدد الجيش ، فان المسلمين إذا اطلقوها والعدو بعيد فسوف يطيش منها الكثير لعدم دقة التصويب على البعد ، اما تأخير قذفها فهو يحقق هدفين فى وقت واحد :

(١) دقة الاصابة .

(٢) واقل استهلاك فى النبال .

والمدهش ان هذا الامر[١] ينطوى على قاعدة يعرفها

(١) ولقد سار المسلمون على هذا المنهج بعد ذلك ، فقد ورد فى شرح القسطلانى ص ٥ ص ٩٤ وعيون الأخبار جـ ١ ص ١٠٧ ما يلى :
«إن العدو إذا زحف ، أمهله رماه المسلمين حتى يكون فى متناول السهام ، ثم امطروه بوابل من سهامهم وهم جاثون على ركبهم جماعات جماعات ، بحيث تخرج سهامهم مجتمعة كأنها صادرة عن قوس واحدة» .

العسكريون اليون هى (كبت النيران) فى الدفاع . فالرصاص الذى تطلقه البندقية الحديثة يمكن ان يصل الى مدى ١٠٠٠ ياردة على الاقل . لكن اصول الرمى فى الدفاع تقضى بأن (يكبت) المدافعون نيران بنادقهم الى ان يصل العدو المهاجم الى مسافة ٢٠٠ ياردة - او ربما أقل - من مواقعهم وذلك حتى يضمنوا دقة الاصابة مع الاقتصاد فى الذخيرة . ويتطابق مع هذا المبدأ مبدأ (تحقيق الاهداف بأعلى قدر من الكفاية وبأقل التكاليف) وهو من اهم مبادئ علم الادارة .

١٠ - تكبيد العدو اكبر الخسائر فى اقصر وقت :

وهو امر يتحقق نتيجة اتباع تعليمات الرسول القتالية كما يلى :

● فتأخير قذف السهام يضمن الا يطيش من سهام المسلمين سهم . وان يكون كل سهم برجل .

● وسيطرة القائد المحكمة على الرمى من حيث (التوقيت) تؤدى الى انطلاق السهام بأكبر حشد كانها صادرة من قوس واحدة . وفى زمن قصير مما يؤدى الى تساقط اعداد كبيرة من العدو صرعى فى أقصر وقت .

١١ - المباغتة باسلوب جديد فى القتال :

ان مفهوم المباغتة فى العلم العسكرى هو (احداث موقف لا يكون العدو مستعدا له) وللمباغتة آثار مادية ومعنوية تزعزع الكفاءة القتالية للجيش الذى يتعرض لها . وتتخذ المباغتة اشكالا متعددة . فقد تكون فى (وقت الهجوم) أو (مكانه) وقد تكون فى (الاسلوب) وهو ما فعله الرسول ﷺ فى بدر . بالقتال باسلوب

الصفوف وهو ما لم تتوقعه قريش التى كانت تقاتل باسلوب الكر والفر ، فكان للمباغتة اثرها على نتيجة المعركة .

والتغيير والتطوير فى الاسلوب آية من آيات القيادة الفذة التى لا تجمد فكرها على الاساليب المعروفة أو الموروثة ، بل تبحث دائما عن الجديد وعن الافضل . يقول ونترنجهام فى كتابه (الاسلحة والتكتيكات)[1] : « ان بعض الجماعات الانسانية بطيئة التغير . وهى تنتظم على سنن فحواها ان التغيير لا ينبغى ، وان العادات المأثورة كلها حسنة قويمة ، وان كل ما يعمل الآن خليق ان يعمل كما قد عمل منذ ازمان ، فاذا برزت جماعات من هذا القبيل للقتال . برزت وفى رؤوس قوادها وجنودها فكرة عتيقة عن الحرب وحقيقتها ولم يغيروا خططهم وآراءهم للانتفاع بسلاح جديد أو معرفة جديدة . ورسخت عندهم اصول رجعية للحرب أو لم تكن لهم فيها اصول على الاطلاق ، ولكنهم يمضون بحكم العادة وفاقا للترتيب الذى وضع منذ عهد بعيد ، وان هذه الجماعات لتخرج جيوشا ليس أسهل من تحطيمها بجيوش الامم التى يسهل عليها اتخاذ الاساليب الجديدة ومواجهة الغير والطوارئ » .

١٢ ـ الاخلال بالتوازن النفسى والمادى للعدو :

يجمع رجال الاستراتيجية العسكرية على ان الاخلال بالتوازن النفسي والمادي للعدو من اقوى اسباب النصر . وفى ذلك يقول الخبير الحربى (ليدل هارت) فى كتابه عن استراتيجية الاقتراب غير المباشر : « ينبئنا التاريخ العسكرى فى جميع العصور لا فى عصر

(١) انظر : Wintringham Weapons And Tactics

واحد . وفى جميع الحروب الحاسمة على التقريب . ان الاخلال بتوازن العدو نفسيا وماديا هو المقدمة التى لا محيص عنها للقضاء عليه » .

هذا المبدأ يقترب مما حققه الرسول القائد ﷺ فى بدر كما يلى :

● فهذه اول مواجهة عسكرية حاسمة بين المسلمين والمشركين .

● وقريش تحس بتفوقها الساحق (٣ : ١) وهى مزهوة به .

● ومن طبيعة الاعراب ان للضربة الاولى اثرا حاسما على نفسيتهم ، فتساقط قتلاهم باعداد كبيرة وفى وقت قصير بفعل سهام المسلمين المصوبة بدقة والمنطلقة فى حشد كبير كأنها صادرة عن قوس واحدة . سوف يصيبهم بصدمة مدمرة لمعنوياتهم .. يقول شارنهورست فى كتابه (التكتيك) : « ان عشرة رجال يسقطون معا فى ميدان المعركة ، يجبرون فوجا (حوالى ١٠٠٠ رجل) على التراجع بصورة مؤكدة ، اكثر من خمسين جريحا يسقطون تدريجيا فى اماكن مختلفة » .

● اضف الى ذلك ان الرسول القائد ﷺ حرص عند تعيينه لمن يخرج للمبارزة التى سبقت القتال العام ، على ان يختار ذوى الكفاءة العالية فى القتال ومن يتصفون بالشجاعة الفائقة وذلك لكى يكون نجاحهم على رجالات قريش مضمونا فيهز بذلك معنويات المشركين ويضعفها ويرفع فى الوقت نفسه معنويات المسلمين قبل ان تبدأ المعركة . فقد رأينا كيف أعاد الفتية الذين خرجوا من الانصار للمبارزة وعين بدلهم عبيدة بن الحارث وحمزة ابن عبد المطلب وعلى بن ابى طالب .. وقد تحقق للرسول ما اراد فقد قُتل مبارزوا

قريش جميعا فكانت بالنسبة اليها بداية سيئة لها ـ ولا شك ـ فى أثرها فى المعركة .

١٣ ـ احداث الارتباك الاستراتيجي فى العدو :

لقد اجتمعت فى بدر عدة عوامل كان لها فاعلية أكيدة فى احداث الارتباك الاستراتيجي فى المشركين :

- المباغتة باسلوب القتال بالصفوف .
- توجيه تكتيكات القتال والرمى (تنفيذا لتعليمات الرسول القتالية) نحو الحصول على نتيجة حاسمة مثل تكبيد العدو خسائر كبيرة فى اسرع وقت .
- سيطرة المسلمين على الماء وحرمان العدو منها .
- التهديد الموجه الى قافلة قريش التجارية التى هى عصب حياتها .

ويحلل العسكريون الآثار المادية والمعنوية التى تنتج عن هذا الارتباك نذكر بعضا منها فيما يلى :

(١) احداث انطباع مفاجئ فى اذهان القادة بأنهم يواجهون موقفا سيئا .

(٢) فرض حالة من التشتت والتمزق النفسى تنبع من احساس القادة بوقوعهم فى (مصيدة) يصعب التخلص منها .

(٣) خلق الشعور بالعجز عن القيام بعمل مضاد لحركة الطرف الآخر .

١٤ ـ تعبئة معنويات المسلمين لاقصى حد :

والى جانب حرص الرسول القائد ﷺ فى تخطيطه وادارته

للمعركة فى بدر على تدمير معنويات المشركين . فقد ظهر حرصه الشديد على رفع معنويات رجاله الى اقصى حد . ولا مراء فى ان العقيدة الراسخة التى تملأ قلوب المسلمين ووجدانهم لا تحتاج الى تبيان . وانما تخص بالذكر هنا ما فعله الرسول القائد ﷺ قبل المعركة وفى اثنائها لتعبئة معنويات المسلمين وحشدها :

● فقد خطب الناس قبل المعركة وحضهم على القتال وقال : « **اما بعد فانى احثكم على ما حثكم الله عليه** ».. **الى ان قال** : **وان الصبر فى مواطن البأس مما يفرج الله به الهم وينجى من الغم** » .

● **وقال عليه الصلاة والسلام** : « **والذى نفس محمد بيده . لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر . الا ادخله الله الجنة** » .

وقد الهب هذا الحديث حماسة المسلمين للقتال . وزاد فى قوتهم المعنوية حتى ان عمير بن الحمام حين سمع حديث النبى ـ وكانت فى يده بعض التمرات يأكلها ـ قال : « اما بينى وبين ان ادخل الجنة الا ان يقتلنى هؤلاء ؟ .. وقذف بالتمرات من يده واخذ سيفه وما زال يقاتل حتى استشهد رضى الله عنه .

ورمق قطبه بن عامر حجرا بين الجيشين وقال : لا أفر الا ان فر هذا الحجر وذلك دليل على عزمه الاكيد على الثبات حتى يقضى الله امرا كان مفعولا .. بل هناك ما هو اغرب واقوى من ذلك . فقد قتل ابوعبيدة بن الجراح اباه وكان من المشركين وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ **لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو ابناءهم أو اخوانهم أو**

عشيرتهم ﴾ (المجادلة : ٢٢) ولم تكن معنويات الكبار الذين مارسوا الحرب وعرفوها من المسلمين هى العالية فحسب ، انما كانت معنويات الاحداث الصغار الذين لم يمارسوا حربا ولا قتالا عالية أيضا ، يقول عبد الرحمن بن عوف : « انى لفى الصف يوم بدر ، اذ التفت فاذا عن يمينى وعن يسارى فتيان حديثا السن ، فكأنى لم آمن بمكانهما ، اذ قال لى احدهما سرا من صاحبه : يا عم ، ارنى ابا جهل . فقلت : يا ابن اخى ، ما تصنع به ؟ قال : عاهدت الله ان رأيته ان اقتله أو أموت دونه .

وقال لى الآخر سرا من صاحبه مثله . فأشرت لهما اليه ، فشدا عليه مثل الصقرين فضرباه حتى قتلاه » . وقد استشهد هذان البطلان فى بدر ، وهما ابنا عفراء : عوف بن الحارث الخزرجى الانصاري ومعوذ بن الحارث الخزرجى الانصارى .

هذا وان صور البطولة والفدائية فى رجال جيش الاسلام لأكثر من أن تحصى .

١٥ ـ استخدام القناصة :

فى اثناء المعركة أمر بعض المسلمين بتوجيه كل همهم لاصطياد زعماء قريش وساداتها من بين صفوف الاعداء واستئصالهم . والعلم العسكرى اليوم يطلق اسم (القناصة) على اولئك الذين يكلفون باصطياد قادة العدو لكى تحدث بقتلهم صدمة وارتباك فى صفوف الاعداء ، ولكن اذا كانت القاعدة الحديثة فى اختيار القناصة هى توفر المهارة فى الرماية ودقة الملاحظة فان الرسول ﷺ قد اضاف الى ذلك عاملا جديدا هو الدافع الذاتى الذى هو اقوى الدوافع على

الاطلاق . فقد اختار بلالا مثلا لاصطياد امية بن خلف وهو من كبار قريش وكان يتفنن فى تعذيبه بسبب اعتناقه الاسلام فى ايام ظهوره . فكان يأخذه إلى الصحراء فى القيظ ويضجعه على ظهره ويضع صخرة عظيمة على صدره ليرجع عن اسلامه . ولكن بلالا كان يردد قولته المشهورة : (احد احد) .. وكذلك اختار الرسول ابن الصفراء لقتل ابى جهل لمثل ذلك .

١٦ ـ ذكر الله فى ساحة المعركة :

يوجه الاسلام المجاهدين الى ذكر الله فى ساحة المعركة بعد أن يأخذوا بأسباب القوة والتجهيز للقتال كما فى قوله تعالى : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** ﴾ (الانفال : ٤٥) .

وكما يفهم من قول النبى ﷺ : « واطلبوا استجابة الدعاء عند التقاء الجيوش واقامة الصلاة ونزول الغيث » .. وقوله : « ثنتان لا تردان أو قلما تردان : الدعاء عند الندا وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضا » .

ويعلمنا الرسول ﷺ انه ليس فى الاسلام ذلك التواكل العاجز الذى يدع الاخذ بالاسباب وينتظر النصر منحة من القدر . وهبة من السماء ، فكان عليه الصلاة والسلام يحكم أمر الجهاد من الناحية المادية احكاما دقيقا من حيث تجهيز الجيش واستطلاع اخبار العدو واعداد الخطة وانتخاب افضل موضع للمعركة ثم يأخذ هو والمحاربون فى الدعاء والتضرع واستنجاز الله وعده . ففى غزوة بدر بعد ان اتم الاستعداد للمعركة . استقبل القبلة ثم مد يده فجعل

يهتف بربه ويقول : « **اللهم انجز لى ما وعدتنى ، اللهم آتنى ما وعدتنى . اللهم ان تهلك هذه العصابة من اهل الاسلام لا تعبد فى الارض** » وما زال يهتف بربه مادا يديه حتى سقط رداؤه .

الخـلاصـة :

وخلاصة ما يستفاد من هدى الرسول ﷺ فى إدارة المعارك ضد عدو متفوق هو ما يلى :

(١) ان تجعل الامة الاسلامية بناء الروح المعنوية واردة القتال على رأس اهدافها الاستراتيجية العليا بالعقيدة الراسخة وبتجسيد الخطر المحدق بالامة من اعدائها . وبذلك تستطيع ان تضع الروح المعنوية فى تخطيطها الاستراتيجى على انها من اكبر العوامل التى تحدث التوازن فى القوى فى مواجهتها لعدو متفوق ﴿**وان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم مائة يغلبوا الفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون**﴾ (الانفال : ٦٥) .

ولقد اثبتت بدر وما تلاها من غزوات ان المسلمين كانوا يواجهون عدوا اكبر منهم قوة ، وان الروح المعنوية وارادة القتال من اقوى دعائم النصر .

(٢) ان تملك الامة الاسلامية زمام الحرب النفسية التى تستهدف تدمير الروح المعنوية للعدو وبذلك تتمكن من احداث التوازن فى القوى من خلال (خفض) معنويات العدو مع (رفع) معنويات رجالها فى الوقت نفسه .

(٣) ان تجعل الامة الاسلامية (الادارة والقيادة العلمية) منهجا لها

فى السلم والحرب على حد سواء .

لقد كانت بدر قمة فى (الادارة والقيادة العلمية) واثبت الرسول ﷺ بالبرهان العملى كيف ان القوة الصغيرة تستطيع بالادارة السليمة ان تقهر قوة متفوقة عليها لكنها تفتقر الى ذلك العنصر . ان كل ما ذكرناه فى تحليلنا للمعركة ناطق بأرقى درجات التنظيم والكفاءة فى الادارة سواء فى مرحلة التخطيط للمعركة أو فى اثناء ادارتها فكان ذلك ايضا من اهم اسباب النصر ..

(٤) وان على الامة الاسلامية الا تذهب بعيدا للبحث عن نظرية تحقق لها فى عصرنا الامن والسلامة وبناء القوة التى تحميها وتدفع العدوان عنها . فان بين يديها كتاب الله وسنة رسوله ، وان لها من تعاليم دينها ، ومن تاريخها العسكرى . ما يغنيها .

ويبقى ان تتمسك بدينها وان تعمل بدروس تاريخها ، حتى تستطيع ان تبنى الجيوش التى لا تقهر ، وان تتبوأ المكانة اللائقة بها ، وان تعود الى سابق عهدها أمة مرهوبة الجانب . وخير أمة اخرجت للناس .

الأمن ومقاومة الجاسوسية

الأسوة الحسنة :

إن الدروس العملية التى يستطيع المسلمون أن يتعلموها من النبي ﷺ فى مجال السرية والأمن أكثر من أن تعد أو تحصىٰ :

فلقد كان من أسباب نجاح الدعوة الاسلامية أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بدأها سراً ..

ولما شاهد على رضى الله عنه النبي يصلى هو وخديجة رضى الله عنها قال : يا محمد ما هذا ؟ قال : دين الله الذي اصطفى لنفسه وبعث به رسله ، فادعوك إلى الله وحده لا شريك له والى عبادته وأن تكفر باللات والعزى .

فقال على : هذا أمر لم أسمع به من قبل اليوم فلست بقاضى امرا حتىٰ احدث به ابا طالب (أى اباه) .

لكن الرسول ﷺ كره أن يفشى سر الدين قبل أن يستعلن أمره فقال له : يا على ، اذا لم تسلم فاكتم . فامتثل على للأمر حتىٰ جاء الرسول فى الصباح التالى واعلن اسلامه وكتم ذلك عن ابيه ولم يظهره .

وكلنا يعرف كيف خطط النبي ﷺ للهجرة وكيف نفذها وكيف طبقت قواعد السرية والأمن على أكمل الوجود سواء فى التخطيط أو فى التنفيذ ، فكان ذلك من أهم أسباب نجاحها .

وعن كعب بن مالك رضى الله عنه أنه قال «ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة الا ورى بغيرها (يجعل الأمر سراً وليخدع العدو) .

ومن الأمثلة العملية فى ذلك أنه ﷺ لما أراد تأديب بنى لحيان الذين غدروا بدعاة المسلمين ـ وكانوا ستة من كبار الصحابة ـ اظهر انه يريد الشام ، وتحرك فعلاً بقواته شمالاً . فلما اطمأن إلى انتشار اخبار تحركه إلى الشمال باتجاه الشام ، عاد راجعاً باتجاه مكة مسرعاً فى حركته حتىٰ بلغ منازل بنى لحيان ، ولكن بنى لحيان فروا إلى رءوس الجبال واستطاعوا النجاة بارواحهم وأموالهم .

ومما يذكر فى هذا المقام قصة نعيم بن مسعود الغطفانى الذى جاء النبى ﷺ فقال له النبى : «**انما أنت رجل واحد فخذل عنا ما استطعت فان الحرب خدعة**» .

فقام نعيم بمهمته خير قيام ونجح فى التفريق بين القوى الثلاثة التى تجمعت لقتال المسلمين (قريش والقبائل العربية ومنها غطفان قبيلته ويهود بنى قريظة) . وكان مما ساعد على نجاح مهمته مراعاة مبدأ السرية والأمن :

فقد كتم النبى ﷺ اسلام نعيم ، وكتم نعيم اسلامه فلم يعرف قومه ولا بنو قريظة ولا قريش شيئاً ، فلو لم يطبق الرسول ﷺ مبدأ السرية والأمن ، ولو لم يطبقه نعيم ، فهل كان بامكان نعيم أن يقوم بهذا الدور الحاسم فى تفرقة صفوف الأحزاب ونزع الثقة من نفوسهم ؟

وقد ابتكر الرسول ﷺ اسلوب (الرسائل المكتومة) مراعاة للسرية والأمن وحرمان أعداء المسلمين من الحصول على المعلومات

التى تفيدهم عن تحركات المسلمين واهدافهم .

فقد بعث صلوات الله وسلامه عليه لسرية من المهاجرين قوامها اثنى عشر رجلاً بقيادة عبدالله بن جحش الأسدي فى مهمة استطلاعية ، وسلمه رسالة (مكتومة) تحتوى على تفاصيل المهمة من حيث الهدف والمكان وغير ذلك من التعليمات ، وامره الا يفتحها الا بعد أن يسير يومين .

وتعتبر غزوة الفتح من أروع الأمثلة التاريخية فى مجال السرية والأمن والكتمان : ان اقرب المقربين إلى رسول الله ﷺ هو صاحبه أبوبكر الصديق ، أول من آمن به فى الاسلام ، كما أن عائشة بنت الصديق ابى بكر كانت أحب نسائه إليه[1] ومع ذلك كانت عائشة لا تفشي لأبيها شيئاً عن سر رسول الله ﷺ ، وكان أبوبكر الصديق وابنته عائشة لا يعلمان من اسرار رسول الله شيئاً .

فحين عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة دخل على زوجته عائشة وقال لها : «جهزينا واخفى امرك» وقال عليه الصلاة والسلام : «اللهم خذ من قريش الأخبار والعيون حتىٰ ناتيهم بغتة» .

ودخل أبوبكر على ابنته عائشة رضى الله عنهما وهى تجهز رسول الله عليه وسلم ، تعمل قمحاً وسويقاً (المعروف بالفريك ودقيقاً ، فقال : يا عائشة أهم رسول الله ﷺ أن يغزو؟ قالت : ما ادرى . لعله يريد بنى سليم ، لعله يريد ثقيفاً ، لعله يريد هوازن .

---

(١) سئل النبى ﷺ : يا رسول الله ، أى الناس أحب إليك ، قال : عائشة قالوا : انما تعنى من الرجال ، قال : ابوها .

فاستعجمت عليه حتىٰ دخل رسول الله ﷺ فقال له : اردت سفرا ؟ قال نعم . قال : افأتجهز ؟ قال : نعم . فأين تريد يا رسول الله ؟ قال : قريشاً واخف ذلك يا ابابكر . وامر رسول الله ﷺ الناس بالجهاز . واخفى عنهم الوجه (الاتجاه) .. الذى يريد .. حتىٰ كان هناك من يظن أنه يريد الشام ومن يظن أنه يريد ثقيفاً . ومن يظن أنه يريد هوازن .

ولقد احتوت غزوة الفتح على الكثير من اجراءات الأمن . وقد كان لهذه الاجراءات أكبر الأثر فى تحقيق المفاجأة الاستراتيجية الكاملة[1] وفتح مكة بلا قتال .

سياج الأمن :

والواقع أن كل دولة تهتم بالحفاظ على أسرارها ومقاومة كل من يحاول الوصول إليها .. ولكل دولة أهدافها الحيوية والحساسة التى تعمل على حمايتها ضد التخريب والتدمير كما تحرص الدولة على التمسك بمبادئها وتماسك ووحدة شعبها وامنه واستقراره .

ولكى تواجه الدولة العمليات التى تحدث هذه الأضرار . نراها تتخذ من التدابير والاجراءات ما يكفل لها أمرين هامين :

- حماية اسرار الدولة وحماية ومنشآتها الحيوية .
- مقاومة من يحاولون الوصول إلى هذه الأسرار أو المنشآت .

والتدابير التى تكفل الأمر الأول تسمى (الأمن الوقائى) وهى بمثابة خط دفاعى . أما تلك التى تكفل الأمر الثانى فتسمى (مقاومة

(١) هى المفاجأة التى تنطوى على احماء نية الهجوم ووقته ومكانه وحجم القوات القائمة به .

الجاسوسية) وهى تعمل على منع من يحاولون اختراق ذلك الخط الدفاعى أو سياج الأمن ..

ولقد أثبت التاريخ أن من أسباب انتصار المسلمين على اعدائهم الكثيرين أن أسرار النبى ﷺ واسرار المسلمين كانت مصونة وبعيدة عن متناول الأعداء ، فى الوقت الذى كان النبى صلوات الله وسلامه عليه يطلع على نيات اعدائه العدوانية عن طريق عيونه وارصاده ـ (رجال مخابراته) قبل وقت مبكر فيعمل من جانبه على احباط ما يبيتونه للاسلام من غدر وخيانة ودسائس .

كذلك لم يستطع المشركون واعداء الاسلام أن يباغتوا قوات النبى ﷺ فى الزمان والمكان واسلوب القتال ، بينما استطاع صلوات الله وسلامه عليه أن يباغت أعداءه فى معظم غزواته وسراياه .

وذلك أبلغ دليل على ما للأمن ومقاومة الجاسوسية من تقدير فى نظر الاسلام .

اللسان وأمانة الكلمة :

من المبادىء المعروفة أن الأمة التى تكتم اسرارها الحربية هى الأمة التى يمكن أن تنتصر ، والأمة التى لا تكتم أسرارها الحربية هى الأمة التى لا يمكن أن تنتصر . وما يقال عن الأمة يقال عن الأفراد لأن الأمة تتكون من أفراد .

واللسان الذى هو نعمه من نعم الله على عباده يستطيعون بها التعبير عن آرائهم وتبادل المنافع مع الناس ، هو وسيلة الخير والسعادة فى الدنيا والآخرة إذا أحسن استعماله ، كما انه سبب قوى

للشر والشقاء فى الدارين اذا اسىء استعماله فهو سلاح ذو حدين يمكن به النفع ويمكن به الضر .. والقرآن الكريم ينبىء بأن كل لفظ من الانسان مسجل عليه . فيقول الله تعالى : ﴿**ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد**﴾(ق ١٨) .

فالكلمة أمانة عظمى لها مكانتها فى الاسلام . وتقدير أمرها والتدبر فيها قبل اللفظ بها مرتبط بالايمان كما يفهم من قول النبى ﷺ «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**» .

ويقول الله تعالى :

﴿**ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى اكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار**﴾ (إبراهيم ٢٤ ـ ٢٦) .

والمراد بالكلمة الطيبة شهادة الا إله الا الله . وقيل : دعوة الاسلام . وقيل : كل كلمة حسنة . والمراد بالكلمة الخبيثة : كلمة الكفر . أو الدعاء إليه أو الكذب أو كل كلمة لا يرضاها الله تعالى .

وافشاء الأسرار التى على الأفراد والأمم بالاضرار من الكلام الذى لا يرضاه الله تعالى . وكذلك كل كلام فيه سعى بالفساد والافساد مندرج تحت الكلمة الخبيثة .

ويقول النبى ﷺ «**ان احدكم ليتكلم الكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغته فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة . وان احدكم ليتكلم الكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت . فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه**» (رواه الترمذى وقال حسن صحيح) .

وعن شعبان بن عبدالله الثقفى قال : قلت : يا رسول الله ، حدثنى بأمر اعتصم به . قال : «قل ربى الله ثم استقم» . قال : قلت : يا رسول الله : واخوف ما تخاف على ؟ . فأخذ بلسان نفسه ثم قال : «هذا» . كذلك قال عليه الصلاة والسلام» رحم الله امرأ اصلح من لسانه» . (رواه ابن ماجة وابن حبان والحاكم والترمذى وقال حسن صحيح) .

كتمان الأسرار :

وينبه الاسلام إلى اليقظة والحذر فى قوله تعالى : ﴿**يآأيها الذين آمنوا خذوا حذركم**﴾ وكما فى قول الرسول عليه الصلاة والسلام «المؤمن كيس فطن» فاليقظة والحذر والوعى والفطنة كلها تدفع إلى كتمان الأسرار ، التى جعلها الاسلام أمانة من الأمانات يجب على المسلمين أن يحافظوا عليها ، كما قال تعالىٰ :

﴿**يآأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وانتم تعلمون**﴾ (الأنفال ٢٧)

وقال النبى عليه الصلاة والسلام «الا لا ايمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له» (رواه أحمد) . وقال أيضاً (آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان» .

وقال عليه الصلاة والسلام «اذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهو أمانة» . (رواه ابوداود والترمدى عن جابر بن عبدالله) .

وقال «انما يتجالس المتجالسان بالأمانة . ولا يحل لاحدهما أن يفشى على صاحبه ما يكره» . (رواه ابن المبارك والحاكم وصححه) .

وقال «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع» .

غرس وعى الأَمن بالتربية والتوعية :

وكان لصحابة رضوان الله عليهم يعلمون اولادهم المحافظة على السر ، قال العباس بن عبدالمطلب لابنه عبدالله : انى أرى هذا الرجل ــ يعنى عمر ابن الخطاب ــ يقدمك على الاشياخ (يعنى كبار الصحابة) فاحفظ عنى خمساً :

لا تفشين له سراً ، ولا تغتابن عنده احداً ، ولا يجربن عليك كذباً ، ولا تعصين له أمراً ، ولا يطلعن منك على خيانة .

وقال انس بن مالك : أتى علىّ رسول الله ﷺ وأنا العب مع الغلمان ، فسلم علينا : فبعثنى فى حاجة ، فابطأت على أمى ، فلما جئت قالت : ما حبسك ؟ (أى أخرك) فقلت : بعثنى رسول الله ﷺ لحاجة . قالت : ماحاجته ؟ قلت : انها سر قالت : لا تخبرن بسر رسول الله ﷺ أحداً . (رواه مسلم) .

الصمت :

الصمت من أكبر أسباب الوقاية من افشاء الأسرار (والوقاية خير من العلاج) والاسلام يرشد إلى الصمت ويدعو المسلمين إليه . فان رسول الله ﷺ يقول :

- «من سره أن يسلم فيلزم الصمت» . (رواه البيهقى) .
- «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» .
- «طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه . وانفق الفضل من ماله» .

- «الصمت حكم وقليل فاعله» .
- «امسك عليك لسانك» .
- «من كف لسانه ستر الله عورته» .

كبح شهوة الكلام (الثرثرة والتحدث بدون حرص) :

من الناس من تتحكم فيه شهوة الكلام أكثر مما تتحكم فيه شهوة الطعام ، فيستر جهله بادعاء العلم (وخاصة ببواطن الأمور) فيطلق لسانه فيما يعرف وفيما لا يعرف . فلا يدع سراً الا اذاعه ، ولا يتخيل حديثاً الا جعله حقيقة ملموسة . ولا يتورع عن ترديد ما يلقى فى اذنيه من انباء هدفها ايقاع الضرر بالأمة كالاشاعات وغيرها .

والاسلام ينهىٰ عن ذلك كما يفهم من قوله تعالىٰ :

﴿ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً اولٓئك لهم عذاب مهين﴾(لقمان ٦)

وقوله جل شأنه :

﴿ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام . واذا تولى سعىٰ فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾ (البقرة ٢٠٤ - ٢٠٥) .

وقال النبى ﷺ المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من امنه الناس على دمائهم واموالهم» (رواه أحمد والترمذى والنسائى والحاكم وابن حبان) .

- وقال «من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه» .

● «لا تتكلم فيما لا يعنيك فانه فضل (فضول) ولا آمن عليكم الوزر ، ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعاً» .

النهى عن التطفل :

من القواعد الأساسية فى الآداب الاسلامية أن يراعى المسلم اخاه المسلم ، فلا يظلمه ولا يخذله ولا يكشف سره ، ولا يهتك ستره ، ولا يخسر منه ولا يتجسس عليه . ومن تمام الايمان أن يحب لاخيه ما يحبه لنفسه ويكره له ما يكره لها ، فلا يقتحم عليه بيته دون استئذان لان للبيوت حرماتها المصونة . ولا يتدخل فى شئونه الخاصة لأنها لا تعنيه ، بل تؤذيه . وفى هذا التدخل هتك للأستار وكشف للأسرار وانتهاك للحرمات ، ولهذا كانت عقوبته من أشد العقوبات .

وذلك ما يفهم من قوله تعالى :

﴿**يآ أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتىٰ تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فان لم تجدوا فيها احداً فلا تدخلوها حتىٰ يؤذن لكم وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو ازكى لكم والله بما تعملون عليم**﴾ (النور ٢٧ ـ ٢٨) .

وقوله جل شأنه :

﴿**إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة واعد لهم عذابا مهينا . والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً واثماً مبيناً**﴾ (الأحزاب ٥٧ ـ ٥٨)

وقال عليه الصلاة والسلام :

- «من اطلع فى بيت قوم بغير اذنهم فقد حل لهم أن يفقئوا عينه» .
- «ايما رجل كشف سترا فأدخل فيه بصره قبل أن يؤذن له فقد اتى حداً لا يحل له ان يأتيه ولو أن رجلاً فقأ عينه لهدرت» .
- اذا استأذن احدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع» .

النهى عن الفضول :

ومن الناس من تستبد به شهوة الفضول ويحفزه حب الاستطلاع على التدخل فيما يعنيه ولا يعنيه من شئون الآخرين ، فتراه دائماً يمد بصره ويرهف سمعه ، ويدس انفه فى كل امر من الأمور ، فتراه ان وجد من الناس اعراضاً عنه يسعى إلى اشباع فضوله بالقاء الأسئلة فى الحاح والحاف ، وكل ذلك يتنافى مع مبدأ السرية والأمن ويؤدى إلى كشف الأسرار لذلك نهى الاسلام عنه كما يفهم من قوله تعالى :

﴿يآ أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشيآء ان تبدلكم تسؤكم﴾ . (المائدة ١٠١) ومن قوله : **﴿رب انى اعوذ بك ان اسألك ما ليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين﴾** (هود ٤٧) .

وقوله جل شأنه :

﴿يآ أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ايحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾ . (الحجرات ١٢) .

وقوله :

﴿يسألون عن انبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا الا قليلاً﴾ (الأحزاب ٢٠) .

وقال النبي عليه الصلاة والسلام :

● «من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صب فى اذنيه الآنك (أى الرصاص المذاب) يوم القيامة» .

وقوله : «لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فانه من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه فى بيته» .

● ونصح صلوات الله وسلامه عليه اصحابه فقال لهم «لا يبلغنى أحد عن أحد من أصحابى شيئاً . فانى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر» .

● وقال عليه الصلاة والسلام : «من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه» .

● ونهى ﷺ عن كثرة السؤال فقال : «ذرونى ما تركتكم فانما اهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم وخلافهم على انبيائهم إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها . وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها» .

ولقد أدى تمسك المسلمين بتعاليم الاسلام فى مجال الأمن إلى أنه لم يرد فى تاريخ صدر الاسلام حوادث خيانة واتصالات مع العدو .

تعلم لغة العدو :

ومن الضرورات الحيوية فى مجال الأمن ومقاومة الجاسوسية معرفة لغة العدو واجادتها سواء من حيث التحدث بها أو الكتابة .

ولقد عنى النبي ﷺ بذلك فأمر زيد بن ثابت بتعليم لغة اليهود وفى هذا يقول زيد «أمرنى رسول الله ﷺ فتعلمت له كتاب اليهود بالسريانية وقال : إنى والله ما آمن يهود على كتابى» ثم يقول زيد «فوالله ما مر بى نصف شهر حتىٰ تعلمته وجدت فيه فكنت أكتب له إليهم وأقرأ[1] له كتبهم إليه» .

وصدق من قال : «من عرف لغة قوم أمن شرهم» .

استخدام الرمز (الشفرة) :

فى مجال المخابرات عادة ما تحول لغة الرسائل سواء الشفوية أو المكتوبة إلى لغة أخرى تستخدم فيها الرموز بحيث لا يستطيع فهم مضمونها سوى مرسلها والمرسلة إليه وهو ما يعرف باسم «الشفرة» .

واستخدام الشفره أمر حيوى لاخفاء محتويات الرسائل عن الأعداء ، ومن المعروف أن كل طرف من الأطراف المتحاربة يضع لنفسه شفرة خاصة وفى نفس الوقت يسعى جاهداً بكل الوسائل لكشف سر الشفرة التى يستخدمها الطرف الآخر (أى حل رموزها) ومن أجل ذلك فان الجيوش .

فى العصر الحديث لا تستخدم شكلاً واحداً من أشكال الشفرة لمدة طويلة بل تقوم بتغييرها من حين لآخر حتىٰ لا تعطى الفرصة الكافية لاعدائها لكى يكشفوا رموزها حتى لقد يصل الأمر إلى تغيير الشفرة عدة مرات فى اليوم الواحد .

---

(١) المراد بالكتاب هنا الكتاب الذى كان الرسول يكتبه إلى اليهود بالسريانية فكان يستعلم بأحد اليهود ليكتب له .

ولقد عنى النبى ﷺ بهذا الاسلوب الذى تبدو فكرته واضحة تماماً فى الواقعة التالية :

فى غزوة الخندق علم النبى ﷺ أن يهود بنى قريظة قد نكثوا عهدهم الذى كان بينهم وبين المسلمين وذلك أن احاط بالمدينة عشرة آلاف مقاتل من قريش والقبائل العربية الأخرى .

وتحرج موقف المسلمين كثيراً ـ وكان عدد مقاتليهم ثلاثة آلاف مقاتل ـ بعد أن نكث بنو قريظة عهدهم (وهم داخل المدينة) فأصبح الخطر يهدد المسلمين من داخل المدينة ومن خارجها ، فبعث النبى ﷺ سعد بن معاذ ، وسعد بن عباده وعبدالله بن رواحة وخوات بن جبير إلى بنى قريظة ليقفوا على جلية الأمر . وامرهم بأن (يلحنوا)[1] بالقول حين يعودون ولا يفصحون فى حالة تأكدهم من خبر نكث بنى قريظة للعهد .

ولقد كان سبب حرص الرسول على استخدام هذا الاسلوب من أساليب الشفرة هو خوفه على معنويات المسلمين من الانهيار . وحرصه على كتمانه حتىٰ يستكملوا اعداد الخندق وسائر استعداداتهم العسكرية قبل أن يعلمهم به .

ولو أن النبى ﷺ سمح باذاعة هذا النبأ الخطير قبل أن يعد المسلمون كل متطلبات القتال لانهارت معنويات المسلمين .

---

(١) فى مختار الصحاح : لحن (بفتح اللام والحاء) له قال له قولاً يفهمه عنه ويخفى على غيره . وبابه قطع .

القدوة المثلى
فى الادارة الحربية

مفهوم إدارة الحـرب :

إدارة الحرب من الاعمال الكبرى التى تحقق بها القيادة اهدافها الاستراتيجية فى الصراع مع اعدائها . وتتطلب مهارة فائقة وكفاية عالية فى الادارة والقيادة والسياسة .. والمتأمل فى سنة الرسول القائد ﷺ فى (ادارته للحرب) دفاعا عن الدعوة يكشف عن جوانب رائعة من عبقريته عليه السلام فى هذا المجال تستحق ان تتأملها الامة الاسلامية وتتدبرها وتفيد منها فى حاضرها ومستقبلها .

فانه عليه الصلاة والسلام ، فضلا عن احكامه القيادة الحربية فى عمليات القتال تخطيطا واشرافا وادارة ، لم يحصر تفكيره أو همه فيما يدور فى ساحة المعركة بين المسلمين واعدائهم بل تعداها إلى امور قد تبدو لاول وهلة غير عسكرية لكن لها نتائج استراتيجية بالغة القوة والأثر فى تحقيق الغايات العليا لتأمين الدعوة والدفاع عنها ، وبذلك سبق الرسول ﷺ الفكر العسكرى الحديث فيما يعرفه العسكريون اليوم بالاستراتيجية العليا أو الكبرى (Grand Strategu) والتى يعرفها العلم العسكرى الحديث بأنها هى « تنسيق وتوجيه جميع امكانيات الدولة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية نحو تحقيق الغاية السياسية للحرب ، ومعنى ذلك أن الجيوش ليست إلا اداة واحدة من ادوات الاستراتيجية العليا لتحقيق الاهداف العليا للدولة » .

المعاهدات وآثارها الاستراتيجية :

فمن ذلك مثلا السياسة التى اتبعها الرسول ﷺ بعد الهجرة والتى تقوم على عقد اتفاقات ومعاهدات مع مختلف القبائل لكفالة حرية الدعوة من ناحية وكفالة حسن المعاملة والجوار من ناحية اخرى .

هذا العمل السياسى والدبلوماسى كانت له آثار استراتيجية بالغة الاهمية فقد احدثت كما يقول رجال الاستراتيجية « خللا فى توازن العدو واضعفت قوته بطريق غير مباشر » وهو ما يتبين مما يلى :

(١) فقد حرمت هذه السياسة العدو من (حرية العمل) وذلك نتيجة (تضييق المساحة) التى يستطيع التحرك فيها للعمل ضد المسلمين .

(٢) وحرمته من (القواعد الخارجية) التى تسمح له بان يقوم بعدوان غير مباشر ضد المسلمين .

(٣) كما حرمته من القوى التى كان يمكنه ان يحالفها لكى تناصره فى عدوانه على المسلمين وخاصة تلك القبائل التى تعهدت بحماية المسلمين كالاوس والخزرج فى بيعتى العقبة .

(٤) وحرمت العدو ايضا من سلوك طريق التجارة مكة/الشام بعد أن أصبح محفوفا بالمخاطر مما أدى إلى كساد تجارة قريش .

صلح الحديبية وآثاره الاستراتيجية :

اما صلح الحديبية الذى تم فى العام السادس للهجرة والذى كان يشابه هدنة « يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض »

فكانت له آثار استراتيجية بعيدة المدى كما يلي :

(١) فقد جعلت الهدنة المنطقة الجنوبية أى التى تقع جنوب المدينة منطقة امينة بالنسبة للمسلمين وكانت قبل ذلك مصدر الخطر الاكبر الذى يهدد الدعوة والمسلمين .

(٢) وانحصر بذلك الخطر فى المنطقة الشمالية التى تضم خصمين هما اليهود فى خيبر وما حولها ، والاعراب فى شمالى المدينة ، الامر الذى يمكن المسلمين من القضاء على هذين الخصمين ، ليصبحوا بعد ذلك متفرغين للتحول ـ فى الوقت المناسب ـ نحو الخصم الاكبر : قريش والى هدفهم الرئيسى : مكة المكرمة .

(٣) وكان من نتائج الهدنة ايضا التفريق بين قريش وحلفائها الطبيعيين يهود خيبر الذين كانوا لا ينفكون يحرضون القبائل على الرسول ﷺ .

(٤) كما انها فتحت المجال للرسول ﷺ لعقد محالفات مع القبائل التى لم تكن تطمئن لمحالفته بسبب قوة قريش لوجود الكعبة بمكة ، وخير دليل على ذلك اعلان خزاعة حلفها للرسول بعد الصلح مباشرة ، وقد ربح المسلمون بذلك حليفا قويا له « اهمية استراتيجية خاصة » لقرب دياره من قريش .

ولقد كانت خزاعة تميل قلبيا الى المسلمين قبل الهدنة ، وكان الاسلام قد انتشر بين افرادها . ولكنها لم تستطع ان تحالف المسلمين قبل هذه الهدنة لان ذلك يهدد مصالحها الدينية لوجود البيت الحرام بمكة التى تسيطر عليها قريش ، هذا بالاضافة إلى تهديد مصالحها الاخرى .

(٥) وقد يسرت الهدنة للمسلمين الوقت وهيأت لهم الظروف لنشر دعوتهم بأمان . وفى ظل هذا المناخ المستقر زادت قوة جيش المسلمين حتى اصبحت عشرة آلاف مقاتل فى فتح مكة بعد ان كانت الفا واربعمائة فى غزوة الحديبية وقد تحققت هذه الزيادة فى زمن لم يتعد سنتين .

(٦) وقد كسب المسلمون عطف كثير من القبائل وكثير من قريش نفسها وكثير من اهل المنطقة المجاورة لقريش بسبب صد قريش المسلمين عن زيارة البيت الحرام وتعظيمه وهو الهدف الذى خرج الرسول ﷺ من المدينة من اجله وقد سهل ذلك من عملية فتح مكة على المسلمين فيما بعد .

(٧) ومن خير ما يعبر عن النتائج الاستراتيجية لهدنة الحديبية قول ابى بكر رضى الله عنه : « لم يجلب نصر للاسلام ما جلب صلح الحديبية » . ثم نزل فى هذا النصر قول الله تعالى : ﴿ **انا فتحنا لك فتحا مبينا** ﴾ .

سماحة الرسول فى الفتح :

لقد فتح الرسول ﷺ مكة بلا قتال . ورغم ان كل الظروف كانت مهيأة امامه لتحقيق نصر عسكرى ساحق على قريش إلا انه عليه السلام وضع مخططا عبقريا للفتح بغير قتال . ورغم كل ما فعلت قريش ضد الاسلام والمسلمين . فانه عليه الصلاة والسلام لم يأت بما يأتيه المنتصر عادة من افعال الانتقام والاستبداد واملاء الشروط . بل كان تصرفه فى اهل مكة بعد الفتح وهم ينتظرون ما هو فاعل بهم قمة فى السماحة حين قال لهم : « **اذهبوا فانتم الطلقاء** » .

ولقد كان لهذه السماحة آثار استراتيجية بالغة القوة وبعيدة المدى كما يتبين مما يلى :

(١) فقد حقق المسلمون (الهدف الاستراتيجى)[١] الا وهو (تأمين الدعوة) إذ اقبلت قريش على الاسلام بعد ان كانت الخصم الرئيسى فى مواجهته ، وتوحدت شبه الجزيرة العربية كلها تحت ظل الاسلام[٢] فاصبحت بذلك قوة ذات عقيدة واحدة وهدف واحد .

(٢) وكسب جيش الاسلام قوة جديدة ، فان قريشا لم تقبل على الاسلام فحسب بل حملت رايات الجهاد فى سبيل الله وتحولت اتجاهاتها من اشد الناس عداوة للاسلام . الى احرص الناس على رفع راية الجهاد فى سبيله ، وليس هذا فحسب بل كان من عرب شبه الجزيرة قادة عسكريون افذاذ قدر لهم ـ كما يقول مونتجمرى ـ ان يكونوا من اعظم قادة الفتوحات الاسلامية .

(٣) ولم تنحصر الآثار الاستراتيجية لهذه السماحة فى عصر النبوة وحده ، بل انها امتدت الى عصر الفتوحات ، فكانت الشعوب المختلفة ترحب بالمسلمين الفاتحين . وتنضم اليهم احيانا لتنجو من عسف الفرس والروم وتستظل بوارف من العدل والسماحة والحرية

---

(١) «الهدف الاستراتيجى» فى مصطلحات العلم العسكرى «هو الهدف الذى يسبب للعدو من الأضرار ما يؤدى إلى أحداث تعييرات حادة فى الموقف العسكرى والسياسى ويؤثر تأثيراً بالغاً على تطور الصراع المسلح ككل» وهذا هو ما حدث فى شبه الجزيرة بعد الفتح .

(٢) لم يبق على الشرك الا بعض القبائل كقبيلتى هوازن وثقيف ، وهى لا تشكل تهديداً له وزنه الاستراتيجى بعد انهيار أكبر حصن للشرك وأكبر عدو للاسلام .

ولقد تحقق لهذه الشعوب ما املته . وسرعان ما دان اكثرها بالاسلام عن رغبة واختيار . وسرعان ما صارت البلاد المفتوحة موئلا للاسلام وصار اهلها من دعاته وحملة لوائه ومن المجاهدين فى سبيله ، وقد اثار ذلك دهشة المشير مونتجمرى فقال فى كتابه (الحرب عبر التاريخ) : « من العجيب ان القوة الرئيسية للجيوش الاسلامية فى فتح اسبانيا بين عامى ٧١٠/٧١٣ كانت مشكلة من الليبيين والتونسيين » . ولم تفت هذا القائد المحنك الآثار الاستراتيجية للسماحة . فقال فى تعليله لسر هذه الفتوحات وكيف وصلت إلى ذلك المدى المذهل : « ان المسلمين كانوا يستقبلون فى كل مكان يصلون اليه كمحررين للشعوب من العبودية ، وذلك لما اتسموا به من تسامح وانسانية وحضارة . فزاد ايمان الشعوب بهم . وقد ظلت جميع المناطق التى فتحها المسلمون فى القرن السابع حتى يومنا هذا ــ ما عدا اسبانيا ــ تحتفظ بالدين الاسلامى وكذلك بالعادات والتقاليد والتراث الاسلامى » .

سبق الاسلام لنظريات العصر :

والامر الجدير بالنظر أن رجال الاستراتيجية العسكرية قد اتفقوا فى عصرنا على عدة مبادئ فى (إدارة الحرب) تقترب من المبادئ التى قررها الرسول ﷺ منذ اربعة عشر قرنا كما يتضح من تأملنا للمبادئ الآتية :

(١) ان الغرض من الحرب يجب أن يكون الحصول على (سلم أفضل) وانه من الضرورى ان يضع القادة فى اعتبارهم ــ وهم

يديرون الحرب ـ السلم الذى يرغبون فيه .

(٢) انك لو ركزت على طاقتك بنوع خاص لكسب النصر (دون أى اعتبار) للتأثير الذى يصيبك بعد ذلك ، فانك لن تستطيع الافادة من السلم .

(٣) راع ان توقع ضربتك (أقل ضرر دائم ممكن) لان عدو اليوم هو حليف الغد .

(٤) عندما تصل الى هدفك العسكرى . فكلما زدت من مطالبك تجاه الجانب الآخر ، زادت المتاعب التى سوف تواجهها ، وهيأت السبب لقيامه بمحاولة قلب الاستقرار الذى حصلت عليه فى الحرب .

وبمعنى آخر ، فان مبادئ الاستراتيجية تنادى بأن (على القائد ان يهيئ الظروف المناسبة لقيام سلام حقيقى ومستقر بعد انتهاء الحرب ، وان يمتنع عن استخدام اساليب القهر والتسلط الغاشم سواء فى اثناء الحرب أو بعدها ، التى تؤدى إلى أن يكون السلم مشوها لاحتوائه على جراثيم حرب تالية .

ولقد حفل التاريخ بأدلة قاطعة على ان الشطط والمبالغة فى إدارة الحروب لا يهيئان مناخا لقيام سلام مستقر أو دائم ، ومنها مثلا ما حدث فى الحرب العالمية الاولى ١٩١٤/١٩١٨ ، فان المعاملة القاسية التى لقيتها المانيا على يد الحلفاء المنتصرين تحت شعار (ويل للمغلوب) والعقوبات الاقتصادية التى اثقلت كاهل الاقتصاد الالمانى ، جعلت السلام الذى جاء بعد تلك الحرب « مشوها يحمل معه جراثيم حرب تالية » كما يقول الاستراتيجيون ..

وهذا هو ما حدث بالفعل . فان تلك القسوة بالذات كانت هى الدافع الرئيسى لهتلر فى العمل بكل الوسائل على انهاض المانيا . وبالتالى سرعة نشوب الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ أى ان السلام لم يدم أكثر من عشرين سنة .

الآثـار الاستراتيجية لميثاق المدينة :

ومن الاعمال التى كان لها آثار استراتيجية فى مجال الصراع بين المسلمين واعدائهم ما قام به الرسول ﷺ بعد الهجرة من اقامة (جبهة صلبة) وذلك بجمع صفوف المسلمين وتوحيد جبهتهم وايجاد رابطة قوية بينهم . وبتنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية لكافة سكان المدينة بمقتضى ميثاق يجمع المسلمين والمشركين واليهود كانت نتائجه من الناحية العسكرية ما يلى :

(١) قيادة الرسول ﷺ لكافة سكان المدينة مسلمين ومشركين ويهود . وبذلك اصبح هو القائد العام فى المدينة .

(٢) تعاون اهل المدينة جميعا فى رد كل اعتداء يقع عليها من الخارج .

(٣) فى حالة الحرب لرد العدوان عن المدينة . تتولى كل طائفة الانفاق على نفسها « على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وان بينهم النصر على من حارب اهل هذه الصحيفة » .

(٤) اصبحت المدينة (قاعدة الاسلام الوطيدة) ـ كما يقول الاستراتيجيون ـ التى تنطلق منها القوات للدفاع عن الاسلام ، وقد سجل التاريخ صلابة هذه القاعدة وقدرتها الفائقة على الصمود فى

مواجهة مختلف الاخطار والتحديات :

● فقد بلغ عدد العمليات العسكرية فى عهد النبى ﷺ قرابة السبعين ما بين غزوات وسرايا فى خلال سبع سنوات .

● وحاربت هذه القاعدة اكثر من عدو فى اكثر من جبهة ، فواجهت المشركين واليهود والروم . وتعرضت للغزو المباشر ، وتعرضت للغدر من داخلها بينما كان ابناؤها يحاربون العدو خارجها ، وكان التفوق فى العدد والعدة فى جانب الاعداء .. لكنها ـ مع كل ذلك ـ بقيت قاعدة صلبة وطيدة حتى تمت كلمة ربك فى شبه الجزيرة ، وامن الرسول ﷺ كل عادية عليها ، واقبل سائر اهلها وفودا عليه يقدمون الطاعة . ويعلنون الاسلام .

الحرب النفسية

● من أعظم الدروس التى تستخلص من سنة الرسول القائد ﷺ فى مواجهته لأعدائه دفاعا عن الدعوة وإعلاء لكلمة الله أن « استخدام العامل النفسى فى الصراع مع الأعداء ضرورة حيوية لتحقيق الأهداف الاستراتيجية » .

فالمعروف أن إرادة المقاومة واردة القتال هى أصلا « حالة ذهنية » تنشأ فى عقل المقاتل فتولد لديه الدافع ليصمد ويقاتل بصلابة وعزم الى حد التضحية بروحه .. وكل طرف من الأطراف المتحاربة يسعى بكل الوسائل نحو « تغيير » تلك الحالة الذهنية لدى خصمه لكى يدفعه الى التخلى عن صموده وعزمه . وبذلك تنهار إرادته القتالية .. وينهزم .

والحرب النفسية من أشد الوسائل فاعلية فى تدمير الإرادة القتالية . ويقرر خبراء الحروب أنها قد تكون أقوى أثرا من القتال بالسلاح فى تحقيق هدف النصر بسرعة وبأقل الخسائر . وذلك لأنها تستهدف فى المقاتل عقله وتفكيره وعواطفه ، لتجرده من أثمن مالديه وهى « روحه المعنوية » ..

يقول روميل : « إن القائد الناجح هو الذى يسيطر على عقول أعدائه قبل أبدانهم » .

ويقول الجنرال ديجول : « لكى تنتصر دولة ما فى حرب ، عليها

أن تشن الحرب النفسية قبل أن تتحرك قواتها الى ميادين القتال ، وتظل هذه الحرب تساند هذه القوات حتىٰ تنتهى من مهمتها » ويقول تشرشل : « كثيرا ما غيرت الحرب النفسية وجه التاريخ » .

● هذه الحقائق لم تخف على الرسول القائد ﷺ ، بل إن الباحث المدقق فى التاريخ الحربى الإسلامى يجد أنه عليه السلام لم يحسن استغلال التأثير النفسى فحسب ، بل إنه قرر فى مجال الاستراتيجية العسكرية « مبادئ للحرب النفسية » على نحو لا تتسامىٰ إليه نظريات العصر وهو ما نبينه باختصار فيما يلى :

المبدأ الأول : التأثير النفسى للقوة

قال عليه الصلاة والسلام : « **نصرت بالرعب مسيرة شهر** » (من حديث رواه البخارى) فهو بذلك يقرر أن تدمير إرادة العدو القتالية يمكن أن يتحقق عن طريق إرهابه وإيقاع الرعب فى قلبه وإخافته من عاقبة عدوانه ، وليس هذا فحسب ، بل يقرر أيضا أن هذا الأسلوب أكثر تأثيرا من غيره من أساليب الصراع وهو ما يوحى به معنىٰ الحديث من أنه يعادل « مسيرة شهر » .

وقد طبق عليه الصلاة والسلام هذا المبدأ خير ما يكون التطبيق ، فلو نظرنا مثلا الى الغزوات التى قادها الرسول ﷺ والتى بلغ عددها ٢٨ غزوة ، فإننا نجد أن القتال نشب فقط فى تسع غزوات منها ، وإن لم ينشب قتال فى ١٩ غزوة بسبب فرار الأعداء أمام قوة المسلمين ، ومعنىٰ ذلك أن إظهار قوة المسلمين قد أرهب الأعداء وجعلهم يقدرون بحساباتهم أنهم سوف يكونون الخاسرين

لو واجهوها فتخلوا عن فكرة العدوان أو القتال .. أى أن التأثير النفسى للقوة قد حقق للمسلمين أهدافهم بلا قتال فى ١٩ معركة من ٢٨[1] .

المبدأ الثانى : الجهاد باللسان

قال الرسول ﷺ : « **جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم** » .. وقال لحسان بن ثابت وكان من شعراء الإسلام : « **ياحسان .. اهج المشركين وجبريل معك ، إذا حارب أصحابى بالسلاح فحارب أنت باللسان** »..

وقال أيضا : « **إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه . والذى نفسى بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل (أى الرمى بالسهام)** » . وكان عبد الله بن رواحة يلقى شعرا فى هجاء الأعداء فى المسجد فاستنكر منه ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه قائلا : بين يدى رسول الله وفى حرم الله تقول الشعر؟ !

فقال الرسول عليه السلام : « **خل عنه ياعمر ، فلهى (يعنى القصيدة) أسرع فيهم من نضح النبل** » وفى روايه « **خل عنه ياعمر ، فوالذى نفسى بيده لكلامه أشد عليهم من وقع النبل** » .

---

(١) وينطوى هذا المبدأ على تنفيذ التوجيه القرآنى : ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم**﴾ (الأنفال ٦٠) إذ يفهم من أن القصد من إعداد القوة والمرابطة هو إرهاب الأعداء وإخافتهم من عاقبة عدوانهم .

إن هذه الأحاديث الشريفة تقرر بكل وضوح ما يلى :

١ ـ إن الجهاد باللسان « واجب » وجوب الجهاد بالأموال والأنفس .

٢ ـ إن الجهاد باللسان قد يكون أسرع وأشد تأثيرا على الأعداء من القتال .

والجهاد باللسان يكون ـ كما يقرر العلماء ـ بإقامة الحجة على الأعداء ، ودعائهم إلى الله تعالىٰ ، ورفع الأصوات عند اللقاء ، ويزجرهم ترويعا لهم ونحو ذلك من كل ما فيه نكاية ، قال تعالىٰ : **﴿ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح﴾** (التوبة ١٢٠) ، وهو بلغة العصر ينطوى على كل أشكال الكلمة المسموعة والمقرؤة والمرئيه مما يسمىٰ الآن بالدعاية التى تستهدف التأثير على العواطف والأفكار والسلوك .

ومن صور الجهاد باللسان فى صدر الإسلام استخدام الشعارات وصيحات القتال التى تروع العدو مثل « الله أكبر » و « أحد أحد » « وأمتى أمتى » ، وما تزال الجيوش فى عصرنا تتخذ لرجالها صيحات للقتال لإثارة الحماسة فى قلوبهم والرعب فى قلوب أعدائهم .

المبدأ الثالث : التفريق بين العدو وحلفائه :

فى غزوة الخندق تجمعت قوى قريش والقبائل الأخرى واليهود للقضاء على المسلمين ، وحدث أن جاء نعيم بن مسعود الغطفانى (وكانت غطفان من القبائل التى انضمت الى قريش فى التجمع

المذكور) الى رسول الله ﷺ وأخبره أنه أسلم ولا يعلم قومه . وطلب منه أن يأمره بما يشاء ، فقال الرسول : « **إنما أنت رجل واحد . فخذل عنا ما استطعت . فإن الحرب خدعة** » .

فقام نعيم بهذه المهمة بأسلوب بارع حاذق بحيث حققت مهمته هدفها فى الوقيعة بين المتحالفين وفى إزالة الثقة فيما بينهم .. فقد ذهب أولا إلى يهود بنى قريظة ـ وكان لهم نديما فى الجاهلية ـ فقال لهم : « قد عرفتم ودى إياكم ، وقد ظاهرتم قريشا وغطفان على حرب محمد ، وليسوا كأنتم ، البلد بلدكم به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون أن تتحولوا منه ، وان قريشا وغطفان ، إن رأوا نهزة (أى فرصة) وغنيمة أصابوها ، وإن كان غير ذلك ، لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين محمد ، ولا طاقة لكم به ، فلا تقاتلوا حتىٰ تأخذوا منهم رهنا (رهائن) من إشرافهم حتىٰ تناجزوا محمدا » .

قالت بنو قريظة : أشرت بالنصح ولست عندنا بمتهم .

ثم خرج نعيم إلى قريش فقال لهم : « بلغنى أن قريظة ندموا (أى ندموا على نقضهم العهد مع النبى) وقد أرسلوا إلى محمد : هل يرضيك عنا أن نأخذ من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقى منهم ؟ ! فأجابهم ان نعم . فإن طلبت قريظة منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا لهم رجلا واحدا .. » ثم ذهب نعيم الى غطفان فقال لهم : أنتم أهلى وعشيرتى ، وقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم .

فلما أرسبت قريش الى بنى قريظة طالبة منها الاستعداد للقتال ، طلبت رهائن من قريش وغطفان قبل أن تشرع بأى هجوم .. وهنا قالت قريش وغطفان : لقد صدق نعيم ، ورفضت طلب قريظة بإعطائها رهائن ، وهنا قالت بنو قريظة : لقد صدق نعيم .. وهكذا كانت دعوة نعيم البارعة سببا فى تفرق جمع الأعداء .

المبدأ الرابع : تحييد القوى الأخرى وحرمان العدو من محالفتها

اتبع الرسول ﷺ بعد الهجرة سياسة تقوم على عقد الاتفاقات والمعاهدات مع مختلف القبائل لكفالة حرية الدعوة وحسن الجوار والمعاملة . وكانت النتيجة المباشرة لتلك المعاهدات حرمان قريش من قوى كان يمكنها أن تتحالف معها وتشد أزرها فى صراعها مع المسلمين ، وليس أقسىٰ على نفس المحارب أن يلتفت حوله باحثا عن حليف يتقوى به فلا يجد !

المبدأ الخامس : التخويف والضغط النفسى :

كتب أبو سفيان الى الرسول ﷺ يقول : « نريد منك نصف نخل المدينة ، فإن أجبتنا الى ذلك ، وإلا أبشر بخراب الديار وقلع الآثار

تجاوبت القبائل من نزار لنصر اللات فى البيت الحرام
وأقبلت الضراغم من قريش على خيل مسومة ضرام

فأجابه الرسول بكتاب جاء فيه : « **وصل كتاب أهل الشرك والنفاق ، والكفر والشقاق ، وفهمت مقالتكم ، فوالله مالكم**

عندى جواب إلا أطراف الرماح . وأشفار الصفاح ، فارجعوا ويلكم عن عبادة الأصنام . وأبشروا بضرب الحسام ، وبغلق السهام ، وخراب الديار . وقلع الآثار .. »

المبدأ السادس : زعزعة ثقة العدو فى إحراز النصر :

وأبرز الأمثلة على تطبيق هذا المبدأ غزوة فتح مكة ، فلقد أدى التخطيط الفذ الذى وضعه الرسول القائد ﷺ والذى استخدم فيه عامل المفاجأة وإظهار القوة ، والتقدم نحو مكة فى أربعة أرتال لإرباك قريش وتشتيت قوتها وعقلها . إلى إحداث خلل فى توازنها النفسى (كما يقول الاستراتيجيون) وإلى زعزعة ثقتها فى إمكان المقاومة أو النصر على المسلمين مما أدى بالتالى إلى تجريدها تماما من إرادة القتال وهو ما تمثل فى قول أبى سفيان لقومه :

« يامعشر قريش : هذا محمد . جاءكم فيما لا قبل لكم به » .

وبذلك فتح المسلمون مكة بلا قتال يذكر .

الوقاية من الحرب النفسية وإزالة آثارها :

١ ـ الإيمان وقوة العقيدة :

دس أبو سفيان الى المسلمين من يحبطون عزائمهم ويرهبونهم من لقاء قريش وحربها ، كذلك دخل ناس من هذيل ـ من أهل تهامه ـ المدينة ، فسألهم أصحاب رسول الله ﷺ عن أبى سفيان فقالوا إن المشركين قد جمعوا لكم جموعا كثيرة فاخشوهم وخافوهم ، واحذروهم فإنه لا طاقة لكم بهم ..

ورغم أن ذلك كان عقب الهزيمة العسكرية التى وقعت بالمسلمين فى غزوة أحد ، وهو ظرف يعتبره خبراء الحرب النفسية من أفضل الظروف الملائمة لحملات الحرب النفسية ، إلا أن محاولة الأعداء اليائسة لم تنجح فى زعزعة معنويات المسلمين بل إنها زادتهم يقينا فى دينهم وقوة وجرأة على مواجهة أقسىٰ التحديات فكان جوابهم فى مواجهة تلك الحرب النفسية : ﴿**حسبنا الله ونعم الوكيل**﴾ . ولذلك أعطاهم الله النعمة والفضل وصرف عنهم السوء ورضى عنهم وفى ذلك قال جل شأنه : ﴿**الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم**﴾ (آل عمران ١٧٣ ـ ١٧٤) وهكذا يكون الإيمان وقوة العقيدة أعظم ركيزة لتحصين المسلمين ضد الحرب النفسية :

(أ)فالمؤمن إيمانا كاملا لا يخاف الوعيد ولا يرهب التهديد ، وليس جبانا رعديدا كأولئك الذين يقول الله فيهم : ﴿**فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشىٰ عليه من الموت**﴾ (الأحزاب ـ ١٩) .

(ب) وليس ذلك فحسب ، بل إن المؤمن لا يزيده التهديد والوعيد وأساليب الحرب النفسية المختلفة إلا إيمانا وثباتا واستعدادا للبذل والتضحية .

(حـ) وهكذا كان الإيمان بالنسبة للمسلمين نورا يهديهم وزادا يقويهم ويثبت أفئدتهم وأقدامهم . وكان بالنسبة للأعداء صخرة

تتحطم عليها أساليبهم ومحاولاتهم للنيل من معنويات المسلمين .

٢ ـ كشف أهداف العدو وأساليبه للمسلمين :

إن الوعى بأهداف العدو وأساليبه فى الحرب النفسية من أهم عناصر الوقاية منها ، ومن ذلك قول الله تعالى :

﴿يآ أيها الذين آمنوا إنْ تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ (آل عمران ١٠٠) .

والمعنى : هؤلاء أعداؤكم يعملون دائما على تفريقكم ، ومحاولة إضلالكم والإيقاع بينكم ، فإن تطيعوهم فإنهم لا يكتفون منكم بتفرق يوهن قوتكم ويزلزل إخوتكم وإنما يظلون يتابعون عملهم ضدكم حتىٰ تكفروا وتخضعوا لهم وتصيروا مثلهم :

﴿يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ .

ثم قال تعالىٰ :

﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلىٰ عليكم آيات الله وفيكم رسوله . ومن يعتصم بالله فقد هدىٰ إلى صراط مستقيم﴾ (آل عمران ١٠١) .

والمعنى : وأنتم يجب أن تكونوا أثبت الناس على الحق وأشدهم تمسكا به لأن آيات الله تتلىٰ عليكم ورسوله قائم بينكم فإذا مات رسول الله فمعكم كتاب الله وسنة رسول الله ، ولن تضلوا ما تمسكتم بهما وعملتم بما فيهما والتففتم بإيمان وحب حولهما . وعار عليكم أن تكونوا مؤمنين مهديين بنور الله وكتابه ثم تنقلبوا وتعودوا الى الضلال ومتابعة أعدائكم وتقليدهم فيما يضر ، غافلين عما أنعم الله به عليكم من الهدىٰ والنور والمبادئ التى ترفع شأنكم وتسعد

حياتكم وترضى ربكم « وكيف تكفرون (تختلفون) وأنتم تتلىٰ عليكم آيات الله وفيكم رسوله » وعبر عن الاختلاف بالكفر لأن الاختلاف يوصل الى الكفر أو لأنه ملامح الكافرين ودأبهم .

ثم قال تعالىٰ :

﴿يآ أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون * واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾ . (آل عمرن ١٠٢ ـ ١٠٣) .

فى الآيتين السابقتين وجه الله تعالىٰ نداءه الى المؤمنين ليصغوا إليه ويهتموا بأمره ونهيه وإرشاده ثم أمرهم بأن يتقوه حق تقاته وأن ينفضوا عن أنفسهم كل آثار الجاهلية من الكفر والفرقة والعداوة والبعد عن الخضوع لله ، وأن يجعلوا كل أمورهم محكومة بدين الله تعالىٰ ثم نهاهم عن التفرق وعليهم أن يذكروا ماكانوا عليه فى الجاهلية من عداوة وتقاتل وتفرق مما تسبب عنه إضعاف شأنهم وتسلط عدوهم عليهم .

٣ ـ كتمان الأسرار ومنع ترويج الشائعات

(وسوف نفصل ذلك عند الحديث عن الأمن ومقاومة الجاسوسية) .

إزالة آثار الحرب النفسية

لا ينكر أحد أن الحرب النفسية قد تترك آثارا فى نفس المقاتل وخاصة فى ظروف الهزيمة حيث تتضاعف الآلام النفسية لأسباب متعددة منها ما هو داخلى كالحزن والتلاوم ، ومنها ما هو خارجى كشماتة الأعداء وطمعهم فى المهزومين ، ومحاولة استثمار نجاحهم فى حملتهم لتحقيق المزيد من الضغط النفسى والتدمير المعنوى .

لكن الإسلام يوجه أبناءه الى الطريق القويم لاستعادة قواهم المعنوية على الأسس التالية :

١ ـ سرعة الرجوع إلى أصول العقيدة والاعتصام بالدين :

يقرر الإسلام ـ كما قدمنا ـ إن قوة العقيدة هى الحصن الحصين للوقاية من الحرب النفسية ، كما يقرر أيضا سرعة الرجوع إليها والاستمساك بها تأتى على رأس أساليب إزالة آثار تلك الحرب .

وأروع الأمثلة التى تذكر فى هذا المجال ما حدث بعد وفاة الرسول ﷺ ، فقد استغل المشركون والمنافقون الموقف على الفور وأخذوا يشنون الحرب النفسية ضد المسلمين لزعزعة إيمانهم وإثارة الفتنة بينهم . وقد أسرع عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى حيث جثمان النبى وهو لا يصدق أنه مات ، فكشف عن وجهه فألقاه لا حراك به ، فحسبه فى غيبوبة لابد أن يفيق منها ، وعبثا حاول المغيرة إقناعه بالحقيقة المؤلمة . فقد ظل مؤمنا بأن محمدا لم يمت . فلما ألح المغيرة ، قال له : كذبت ـ وخرج معه إلى المسجد وهو يصيح : « إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد

توفى ، وأنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل : قد مات . والله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنه مات » .

واستمع المسلمون بالمسجد إلى هذه الصيحات من جانب عمر يرسل الواحدة تلو الأخرى وهم فى حال أشبه شيء بالذهول ، لولا أن خرج أبو بكر الصديق وحسم الموقف بخطبته المشهورة التى قال فيها بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« أيها الناس ، إنه ، من كان يعبد محمد فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حىٌ لا يموت » . ثم تلا قوله تعالى **﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإِن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين﴾** (آل عمران ١٤٤) .

وهكذا زايل القلوب كل شك فى أن محمدا قد مات ، ولما كان الغد من ذلك اليوم خطب عمر الناس فقال : « إنى قد قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت مما وجدتها فى كتاب الله ، ولا كانت عهدا عهده إلى رسول الله ، ولكنى قد كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا ويبقى ليكون آخرنا ، وأن الله قد أبقى فيكم كتابه الذى به هدى رسوله ، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له » .

وهذا يكون الاعتصام بالدين أقوى أسباب الوقاية من الضلال ، وصدق رسول الله ﷺ إذ قال : « **لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدى .. كتاب الله وسنتى** » .

٢ ـ الاستعانة بالصبر والصلاة :

والصبر والصلاة من أقوى أسليب الوقاية والعلاج معا لإزالة الضغوط النفسية . يقول الله تعالى :

﴿يآ أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين . ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون . ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات . وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة . وأولئك هم المهتدون .﴾ (البقرة ١٥٣ ـ ١٥٧)

﴿لتبلون فى أموالكم وأنفسكم : ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾ . (آل عمران ١٨٦)

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتىٰ يقول الرسول والذين آمنوا معه : متىٰ نصر الله إلا أن نصر الله قريب﴾ . (البقرة : ٢١٤)

ويقول الرسول ﷺ : « **واعلم إن النصر مع الصبر ، وإن الفرج مع الكرب وإن مع العسر يسرا** » ..

كما يقول فى وصف المؤمن :

« **عجبا لأمر المؤمن إنَّ أمره كله خير ، وليس ذلك إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له** » .

٣ـ تجنب الضعف النفسى والاستسلام للحزن :

يدعو الله تعالىٰ المؤمنين الى تجنب الضعف النفسى (الوهن) الذى لو أصابهم ضاعت قوتهم وأصبحوا « غثاء كغثاء السيل » .

كما يدعوهم جل شأنه الى عدم الاستسلام للحزن لكي يستعيدوا قوتهم ويبقوا على روحهم المعنوية وإرادتهم القتالية القوية ، ويذكرهم بحقهم الذى يجاهدون من أجله ، وبعدالة قضيتهم ، وبالإيمان الذى يملأ قلوبهم ، فيقول سبحانه :

﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ، أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ (آل عمران ١٣٩ ـ ١٤٢) .

ولنأخذ ما حدث فى غزوة أحد مثلا لذلك :

فقد انتهت الغزوة بهزيمة المسلمين ، لكن الله سبحانه وتعالىٰ لا يترك عباده المؤمنين للآلام النفسية تطحنهم وتوهن عزائمهم ، وإنما يأخذ المولى بأيديهم ويبين لهم سنته فى كونه فى رحمة ولطف يجدد بذلك عزائمهم ، ويحى به نفوسهم .

ولهذا ينهى الله عز وجل عباده من الضعف والحزن ويعدهم بأن النصر النهائى للمؤمنين ويذكرهم بأن الذى أصابهم اليوم قد أصاب مثله أعداءهم من قبل فى غزوة بدر ، إن الله يداول الأيام بين الناس ، والعاقبة دائمة للمتقين .

٤ ـ مواجهة الشائعات بالحقائق الدامغة :

ليس هناك مثل الحقائق وسيلة للقضاء على الحرب النفسية وإزالة آثارها . تلك حقيقة علمية يقررها علماء النفس وخبراء الحرب النفسية ..

إن غيبة الحقيقة تولد لدى الإنسان فراغا فكريا يجعله فريسة سهلة للإشاعات والأخبار المضللة التى يذيعها الأعداء مستغلين ذلك المناخ الصالح الذى يتهيأ لهم لتحقيق أغراضهم فى تدمير الروح المعنوية .

ولا تفلح وسائل تكذيب الإشاعات والأخبار المضللة فى إزالة تلك الآثار الهدامة مثلما تفلح الحقيقة التى هى السبيل الأوحد لقطع الشك والقضاء على البلبلة والغموض .

ومن الأمثلة التى تساق فى هذا المجال ما حدث فى غزوة أحد من إشاعة قتل النبى ، فى وقت عصيب وفى ظروف بالغة القسوة ، فكان لها أثر شديد فى نفوس المسلمين فخارت قواهم وألقىٰ الكثير منهم ما معهم من السلاح .

يصور لنا ذلك الصحابى الجليل أنس بن النضر حينما مر بعمر بن الخطاب فى جمع من الأنصار والمهاجرين قد ألقوا سلاحهم فقال لهم ما يجلسكم ؟ قالوا : قتل رسول الله ﷺ .. قال : فماذا تصنعون بالحياة بعده ، قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ . ثم استقبل القوم حتىٰ قتل ..

ولقد كان رد الرسول القائد على إشاعة مقتله أن صعد فوق

الجبل ليطمئن أصحابه ويرد إليهم الثقة فى أنفسهم ، وكان عليه الصلاة والسلام ينادى « **إلى يا فلان إلى يا فلان أنا رسول الله** » .

وهكذا كانت الحقيقة الدامغة بوجود رسول الله بنفسه حيا أبلغ رد يقضى على ما أشيع عن مقتله . ولم تؤد هذه الحقيقة إلى إزالة الآثار المعنوية للإشاعة فحسب . بل أدت دورها الإيجابى الفعال فى تجميع القوى المبعثرة وفى رد الثقة فى النصر الى المسلمين .

٥ ـ إزالة الآثار بالعمل العسكرى :

ويصل اهتمام النظرية الإسلامية فى إزالة آثار الحرب النفسية الى القيام بالعمل العسكرى إذا اقتضىٰ الأمر .

فإنه بعد ماكان فى أحد . جعل الرسول القائد صلوات الله وسلامه عليه يفكر فيما خلفته الهزيمة من آثار على هيبة المسلمين :

(أ) فأهل يثرب من اليهود والمشركين يظهرون أشد السرور لما كان من هزيمته وهزيمة أصحابه .

(ب) وسلطان المسلمين بالمدينة الذى كان قد استقر فلم يبق لأحد ينازع فيه ، يوشك أن يضطرب ويزعزع .

(حـ) وكبير المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول قد خرج على الجماعة وعاد من أحد ولم يشترك فى القتال بدعوى أن محمدا لم يسمع رأيه أو أن محمدا غضب على مواليه من اليهود .

(د) ولو ترك أمر نتيجة المعركة على النحو الذى انتهت إليه لبقيت الهزيمة هى الكلمة الأخيرة بين المسلمين وقريش ، ولهان أمر محمد وأصحابه على العرب ولتضعضع سلطانهم بالمدينة ، ولكانوا

عرضة لاستخفاف قريش بهم والاستهزاء منهم فى أنحاء شبه الجزيرة .

وهكذا كان لابد من ضربة جريئة تخفف من وقع هزيمة أحد وترد الى المسلمين قوتهم المعنوية وتدخل الى ورع اليهود والمنافقين الرهبة ، وتعيد الى محمد وأصحابه سلطانهم بيثرب قويا كما كان ..

فلما كان الغد من يوم أحد أمر الرسول القائد صلوات الله وسلامه عليه المسلمين بالخروج لمطاردة العدو على ألا يخرج إلا من حضر الغزوة ، فخرج المسلمون حتىٰ بلغوا حمراء الأسد[1] .

فوقع فى روع أبى سفيان أن أعداءه جاءوا من المدينة بمدد جديد ، وأبلغه معبد الخزاعى « أن محمدا قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط وقد اجتمع معه من كان تخلف عنه وكلهم أشد ما يكون عليكم حنقا ومنكم للثأر طلبا » .

فخاف أبو سفيان لقاء المسلمين ، لكنه فكر فيما يؤدى إليه فراره من آثار ، فلجأ الى الحيلة وإلى أساليب الحرب النفسية ، فأرسل الى المسلمين من يبلغهم أنه قد أجمع السير إليهم ليستأصل بقيتهم (أسلوب التخويف) .

لكن الرسول ﷺ لما بلغته رسالة أبى سفيان لم يتضعضع عزمه بل ظل فى مكانه يوقد النار طيلة الليل ثلاثة أيام متتابعة ليدل قريشا على أنه على عزمه وأنه منتظر رجعتهم ..

وأخيرا فترت همة أبى سفيان وقريش وعادوا أدراجهم الى مكة ورجع المسلمون الى المدينة وقد استردوا كثيرا من هيبتهم .

---

(١) موصع يبعد عن المدينة ثمانية أميال

تطوير الجيش

سنة التطوير :

من أهم ما يتعين على الأمة الاسلامية أن تتدبره فى هذا العصر الذى تتطور فيه اسلحة الحرب واساليب القتال تطوراً مذهلاً تقطع الانفاس ملاحقته ، هو توجيهات الاسلام فى مجال تطوير القوة . فنى هذه التوجيهات أقوى الحوافز التى تدفع هذه الأمة بكل قواها نحو طىّ مسافة التخلف واللحاق بمقتضيات هذا العصر .. وكل عصر ..

والحق أن القرآن الكريم لم ينبه عقول المسلمين وقلوبهم إلى شىء بعد التوحيد مثلما نبههم إلى سنة التطوير . وقد دعاهم إلى كشف آثار هذه السنة والانتفاع بها ، وحذرهم من تجاهلها أو الوقوف فى وجهها قال تعالى : **﴿قل انظروا ماذا فى السموات والأرض﴾**(يونس ١٠١) ونعى على المقلدين وعلى الذين يأبون التطور ، قال تعالى : **﴿واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾** (البقرة ١٧٠) ثم إن المنهج العلمى «منهج الاستقراء» فى الملاحظة والتجربة والتفكير المنظم ، وأساس كل ابتكار وتقدم ، «منهج اسلامى» وهو المنهج الذى قامت عليه الحضارة الحديثة كما يشهد التاريخ والمنصفون من علماء الغرب .

مقتضى التكليف القرآنى :

فلو تأملنا التكليف القرآنى باعداد القوة فى قول الله تعالى : **﴿واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾** (الأنفال ٦٠) لوجدنا ما يلى :

١ ـ انه تكليف قائم وباق حتىٰ تقوم الساعة .

٢ ـ وورود لفظ «قوة» مطلقاً دون تقييده بشكل معين . يقضى منطلقياً أن تتطور القوة فى شكلها ونوعها وتركيبها وأساليب استخدامها لتناسب روح العصر الذى يحتويها .

٣ ـ والأمة الاسلامية ان لم تفعل ذلك . ولم تأخذ بأسباب التطور والتقدم ، وتخلفت عن مقتضيات عصرها ، وفقدت قوتها التى أمرها الله باعدادها فعاليتها وقيمتها . وعجزت عن ارهاب الاعداء . وتعرضت الأمة للخطر والهلاك .

سنة الرسول القائد :

وعلى الأمة الاسلامية بعد ذلك أن تتدبر ما جرت عليه سنة رسول الله ﷺ فى هذا المجال ، فلقد كان عليه الصلاة والسلام حريصاً كل الحرص على ملاحقة مقتضيات عصره فى مجال تركيب الجيوش . وهذا هو ما يكتشفه من يدرس التاريخ عامة وتاريخ «فن الحرب»[١] فى العصور الوسطى على وجه الخصوص :

(١) فن الحرب (Military Art) هو الفن الذى يحتوى على جميع المسائل المتعلقة باعداد وادارة شئون الحرب .

The Encyclopedia of Military History (form 35 B c to the present) By R Ernest Dupuy and Trevor N Dupuy (Page 201)

اولاً : تطور القوة الضاربة الاسلامية :

ان الباحث المدقق يجد أن «القوة الضاربة»[1] فى الجيوش العالمية المعاصرة لظهور الاسلام كانت تتكون من الفرسان راكبى الخيول ، فلقد كانت الاستراتيجية العسكرية لكل من فارس وبيزنطة وهى القوى العظمى المحيطة بالجزيرة العربية ، تقوم على أساس أن تشكل الفرسان «القوة الضاربة الرئيسية» فى التركيب التنظيمى لجيوشها[2] ، كما انها كانت تستخدم نظرية «قوة الصدمة» التى يحدثها الفرسان حاملوا الرماح فى القتال .

● ولقد بدأ جيش الاسلام فى عصر النبوة بلا قوة ضاربة ، ففى غزوة بدر كانت قوة المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر كلهم من الراجلين (المشاه) ولم يكن معهم سوى فرسين اثنتين وهو شيء لا يشكل قوة على أى نحو (فالنسبة أقل من واحد بالمائة إلى مجموع الجيش» فهل بقى الجيش على هذه الحال ؟

● لقد بلغ عدد الفرسان فى قوة جيش المسلمين فى غزوة تبوك عشرة آلاف فارس وكان مجموع الجيش ثلاثين ألفاً . أى أن نسبة الفرسان إلى مجموع الجيش قفزت إلى نسبة الثلث (٣٣٫٣٪) . وقد حدث هذا التطور خلال فترة زمنية لم تتجاوز سبع سنوات (من السنة الثانية إلى التاسعة من الهجرة) .

(١) «القوة الضاربة» هى تلك القوة من التشكيلات المقاتلة التى تستخدمها القيادة لتوجيه الضربات التى تحدث خللاً فى توازن العدو وتساعد على القضاء عليه .

(٢) راجع «دائرة معارف التاريخ الحربى» .

كيف طور الرسول القوة الضاربة ؟

١ ـ تشجيع المسلمين على اقتناء الخيل :

لقد رغب عليه الصلاة والسلام فى اقتناء الخيل . ومن ذلك أنه جعل للفارس عند توزيع الغنائم سهمين وجعل للراجل سهماً واحداً . وذلك لكى يستعين الفارس بالسهم الزائد على اعاشة فرسه واعدادها للحرب . وكان من أثر ذلك أن كان بعض الفرسان الاشداء يخرج للقتال بفرسين يحارب عليهما ويأخذ اسهمهما كما فعل الزبير بن العوام فى غزوة حنين وفى حروب الشام المختلفة .

وقال عليه الصلاة والسلام : «ان الله تجاوز لكم عن صدقة الخيل» .

٢ ـ تدريب المسلمين على الفروسية :

وحث عليه الصلاة والسلام المسلمين على ترويض الخيل والفروسية وفنون القتال عليها فقال عليه الصلاة والسلام : «عاتبوا الخيل فانها تعتب» أى ادبوها وروضوها للحرب والركوب فانها تتأدب وتقبل العتاب [١] .

٣ ـ حث المسلمين على العناية بالخيل :

عن نعيم بن أبى هند أن النبى ﷺ أتى بفرس ، فقام إليه يمسح عينيه ومنخرية بكم قميصه ، فقيل : يا رسول الله اتمسح به قميصك ؟ فقال : «ان جبريل عاتبنى فى الخيل» .

---

(١) النهاية فى غريب الحديث والأثر .

ونهى الرسول ﷺ عن الاساءة للخيل . وعن أكل لحومها ، وقد روى عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : «أصاب رسول الله فرساً من حدس (حى من اليمن) فأعطاه رجلاً من الأنصار وقال : إذا نزلت فانزل قريباً منى . فانى اتسار إلى صهيله .. ففقده ليلة فسأل عنه ، فقال : يا رسول الله إنَّا خصيناه ، فقال «مثلت به» يقولها ثلاثاً ، «الخيل فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، أعرافها ادفاؤها ، واذنابها مذابها ، التمسوا نسلها وباهوا بصهيلها المشركين» .

وكانت العرب فى الجاهلية تجز ناصية الفرس (شعر مقدم الرأس) اعلاناً وايذاناً بالثأر . فدعا الرسول ﷺ إلى نبذ هذه العادات الجاهلية .. عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : «لا تهينوا أذناب الخيل . ولا تجزوا اعرافها ونواصيها» .

ثانياً : تطوير تسليح الجيش :

● وبالاضافة إلى التطور فى «القوة الضاربة» فقد عنى الرسول ﷺ بتطوير تسليح الجيش . وحرص على تزويده بالأسلحة المعاصرة والتى لم يألفها من قبل وعلى تدريب المسلمين عليها ثم استخدامها فى القتال الأمر الذى ينطوى على تطور فى أساليب القتال أيضاً وفى الكفاءة القتالية للجيش بالتالى .

● فجيش المسلمين لم يكن لديه أسلحة الحصار أو دك الحصون والأسوار ، وهذه الأسلحة كانت لدى الجيوش الكبرى فى ذلك العصر (فارس وبيزنطة) فبعث الرسول ﷺ بعثه من اثنين من

المسلمين هما عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة إلى جرش[1] ليتعلما صنعة العرادات والمنجنيق والدبابات .

● وقد استخدم الرسول ﷺ المنجنيق والدبابات فى حصار الطائف كما روى أنه نصب المنجنيق فى حصار خيبر للتهديد ولكنه لم يرم به فعلاً . فقد روى ابن خلدون «ان الرسول هم بنصب المنجنيق على خيبر . فلما ايقنوا بالهلكة سألوه الصلح) . وان دل هذا على شيء فانما يدل على ما أحدثه التطوير فى تسليح جيش المسلمين من أثر على الكفاءة القتالية وعلى ايقاع الرهبة فى قلوب الأعداء . وهذا تطبيق عملى للتوجيه القرآنى **﴿واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾** .

● على أن المسلمين لم يكتفوا بملاحقة التطور فى اسلحة القتال من خلال «نقل التكنولوجيا الحديثة المعاصرة» على النحو الذى ذكرناه ، بل انهم ـ وهو ما نلفت النظر إليه تناولوا هذه الأسلحة بالتحسين والتطوير والتعديل على يد الخبراء من أبنائهم الذين تعلموا تلك الصناعة واتقنوها . فكان لها أثرها الواضح فى حصارهم

---

(١) جرش مدينة تقع شرق جبل السواد من أرض البقاء وحوران من أعمال دمشق ، ولما كانت دمشق تحت حكم البيزنطيين وقت ذلك فمن الجائز أن يكون العرب نقلوا هذه الأسلحة عنهم .

للمدن المحصنة ذات الأسوار العالية فى حروب العراق والشام وفتح مصر[1] .

ثالثاً : التطور فى مستوى الرمي :

● اشتهر الفرس بالمهارة الفائقة فى الرماية . يقول الطبرى : «بلغ من مهارة الفرس فى الرماية أن أحدهم كانت ترفع له الكرة فيرميها ويشكلها بالنشاب» (أى السهم) وقد أدرك الرسول القائد ﷺ تفوق الفرس على العرب فى هذا المضمار فقال لاصحابه عنهم : «هم أقوى منكم رمية» ... فهل وقف المسلمون أمام هذا التفوق مكتوفى الأيدى ؟

● إن المتأمل فى سنة الرسول القائد ﷺ فى حث المسلمين على التدريب على الرمى يكشف عن حرصه عليه الصلاة والسلام على رفع مستوى كفاءتهم فى الرمى إلى أقصىٰ حد ، يدل على ذلك الأحاديث الشريفة التالية :

– عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : صعد رسول الله ﷺ المنبر يوماً ، فقرأ قوله تعالى : ﴿**واعدوا لهم ما استطعتم من قوة**﴾ ثم قال : الا ان القوة الرمى .. ان القوة الرمى .. ان القوة الرمى» (رواه مسلم) .

---

(١) ولقد اعترف بذلك الامبراطور البيزنطى «ليو» الذى حكم بيزنطة فيما بين عام ٨٨٦ إلى ٩١٢ ميلادية ، مع ما عرف عن من تعصب ضد العرب والمسلمين ، فقد نقل عنه فون كريمر فى كتابه (الشرق تحت حكم الخلفاء) إنه قال : «إن الجندى العربى ما كان يفترق عن الجندى البيزنطى فى المؤن والسلاح ، فالأسلحة هى نفس الأسلحة ، القوس والسهم والسيف والبلطة . والخوذة وقاية للرأس والدرع وقاية للبدن ، والحديد يلبس فى الأدرع والسيقان» .

ـ وقال أنس : ما ذكرت القوس عند النبي عليه السلام الا قال : «ما سبقها سلاح إلى خير قط» .

ـ وقال ﷺ : «من مشى بين الغرضين كان له بكل خطوة حسنة (رواه الطبرانى ـ والغرضان تثنية غرض وهو ما يحاول الرامى اصابته) .

ـ وقال أيضاً : «كل ما يلهو به المرء المسلم باطل ، الا رميه بقوسه ، وتأديب فرسه ، وملاعبة أهله» .

ـ ومن أعظم ما يدل على شدة اهتمامه عليه الصلاة والسلام بالرماية انه مر بموضع كان الصحابة يتدربون فيه على الرمى ، فخلع نعليه وقال : «روض من رياض الجنة» أى أن العمل الذى يعمل فى هذا الموضع وهو التدريب على الرمى ، يوجب روضة من رياض الجنة . وقد بلغ من تقدير المسلمين للتدريب أن بعضهم كان يتدرب حتىٰ فى يوم العيد ! !

● **التدريب بلا توقف :**

ثم إنَّ الرسول القائد ﷺ حث على «محافظة» الرامى على كفاءته فى الرمى وعلى «تنميتها» لبلوغ اعلى درجات الكفاية فيه فقال عليه الصلاة والسلام : «من ترك الرمى بعد ما علمه ، فانما هى نعمة جحدها» ، وقال أيضاً : «من علم الرمى ثم تركه فليس منا ، أو فقد عصىٰ» .

● **تكريم صانعى السهام ورجال الامداد بها :**

وقد امتد اهتمام الرسول القائد ﷺ بالرمى إلى اولئك الذين يصنعون السهام والذين يمدون الرماة بها ، فقال عليه السلام : ان

الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه المحتسب فى عمله الخير ، والرامى به ، والممد به» .

رابعاً : البحرية الاسلامية لأول مرة :

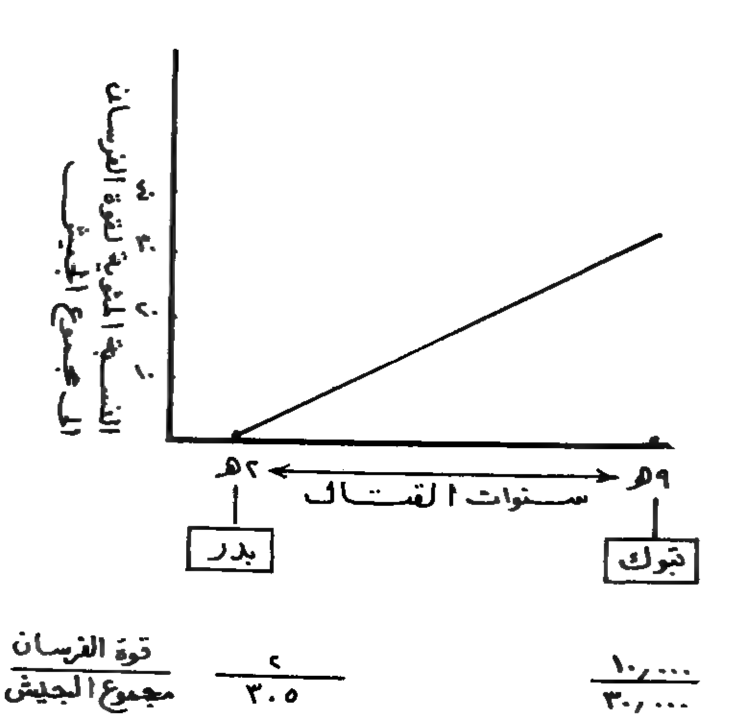
● ومن أعظم التطورات الاستراتيجية فى الصدر الأول انشاء البحرية لأول مرة فى تاريخ المسلمين ..

فلقد رأى المسلمون ــ دون انتظار لنص موجه ــ ان كتابهم لا يعلو فى عالم يجهلون فيه شئونه البحرية فعبدوا الله بالسيطرة على الأمواج ، واقتحموا هذا المجال الجديد عليهم ــ وهم أهل البادية ــ بكل اقتدار وعزم ، وانجزوا فى وقت قياسى بناء الأساطيل البحرية واتقنوا فن الحرب البحرية . وليس هذا فحسب بل انهم واجهوا اسطول بيزنطة ــ وكان أعظم اساطيل عصره ــ فى المعركة البحرية فهزموه . واستطاعوا السيطرة على البحر الأبيض المتوسط فكانت اساطيل الرومان والصقالبة والفرنجة جميعاً «تهرب من الاسطول الاسلامى» .

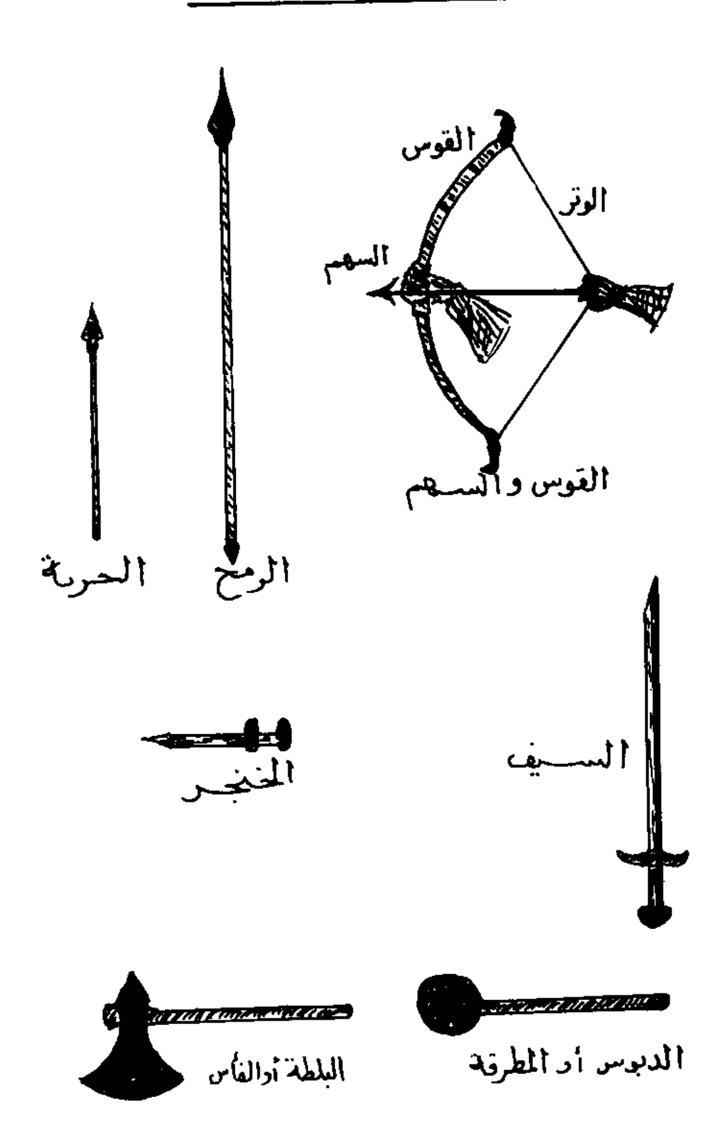
يقول بن خلدون : «كان الروم مهرة فى ركوب البحر والحرب فى اساطيله ولم يكن العرب أول الأمر مهرة فى ركوبه ، فلما استقر الملك لهم وشمخ سلطانهم صارت أمم العجم تحت ايديهم وتقرب كل ذى صنعة إليهم بمبلغ صناعته . فاستخدموا فى حاجتهم البحرية كثيراً من هؤلاء وأنشأوا السفن وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح واسسوا دارا لصناعة الآلات البحرية بتونس ومنها كان فتح صقلية أيام زياد الله ابن الأغلب على يد أسد بن الفرات شيخ الفيتا» .

ويقول أيضاً : «إن المسلمين تغلبوا على لجة بحر الروم (يعنى البحر الأبيض المتوسط) وان اساطيلهم سارت فيه جنائية وذاهبة من صقلية إلى تونس . والرومان والصقالبة والفرنجة جميعاً تهرب اساطيلهم أمام البحرية العربية ولا تحاول الدنو من اساطيل المسلمين التى ضربت عليهم كضراء الأسد على فريسته) (أى أنها كانت تطارد أساطيل الاعداء) .

تطور القوة الضاربــة
في عصر النبوة



أسلحة الرمى والقتال



وسائل الدفاع والوقاية



الدرع المنسوجة من حلقات الحديد



درع من الحديد

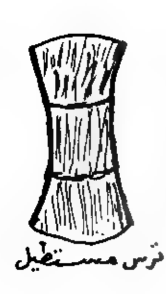




البيضة أو المغفر



ترس مستدير

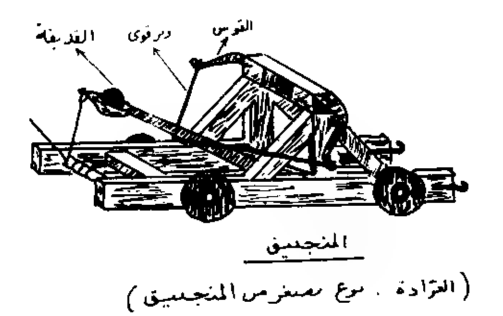


ترس مستطيل



ترس مقبب

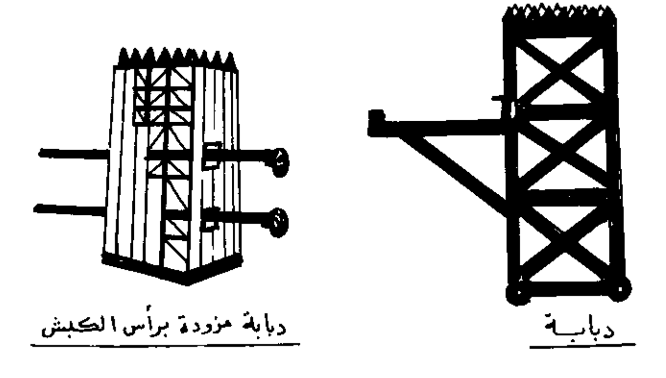
أسلحة الحصار ودك الحصون



المنجنيق

(العرادة . نوع مصغر من المنجنيق)

الدبابات



دبابة مزودة برأس الكبش

دبابة

الخـاتمـة

تنظيم مقترح للتطبيق العملى لمبادىء العسكرية الاسلامية فى مجالات التدريب والتعليم العسكرى ..

وإذا كانت امتنا الاسلامية اليوم تسعى جاهدة نحو النهضة الحضارية الشاملة ، فان نقطة الانطلاق فى يقينى هى الأخذ بمبادىء ونظريات العسكرية الاسلامية من الناحيتين النظرية والتطبيقية ..

من أجل ذلك نرى ما يلى :

أولاً : تدريس العسكرية الاسلامية والتاريخ الحربى الاسلامى :

وذلك فى المدارس والمعاهد والكليات العسكرية للدول الاسلامية ، لكى يرسخ فى وجدان ابنائنا أن للاسلام مدرسة عسكرية كاملة تستمد مبادئها الأساسية من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة القولية والعملية والتقريرية . وان للاسلام تاريخاً حربياً مجيداً يستحق الدراسة والفخر.

وتشكل هذه الدراسة القسم الأول من مناهج الدراسة فى تلك المعاهد والكليات ثم يكون القسم الثانى دراسة المبادىء والأسس

والنظريات العسكرية المعاصرة وكذلك دراسة المعارك الحربية البارزة فى التاريخ الحربى على مر العصور ، مع الانفتاح الواعى على كل ما هو جديد فى فن الحرب واساليب القتال .

وفيما يلى أهم الخطوط العريضة لمنهج الدراسة المقترح :

١ ـ العقيدة العسكرية الاسلامية :

مصادرها : القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ـ خصائص العقيدة العسكرية الاسلامية التى تميزها عن العقائد العسكرية الوضعية .

٢ ـ مشروعية القتال فى الاسلام :

أسباب القتال فى الاسلام ـ الاسلام دين السلام ـ الحرب العادلة وآثارها الاستراتيجية .

٣ ـ الجهاد فى سبيل الله :

الجهاد جوهر العقيدة العسكرية الاسلامية ـ ارتباط الجهاد بالايمان ـ الجهاد ماض إلى يوم القيامة ـ احكام الجهاد ـ حالات الاعفاء من الجهاد ـ ثواب المجاهدين ـ التخلف عن الجهاد وعقاب المتخلفين ـ الجهاد وبناء الكيان العسكرى للأمة .

٤ ـ آداب الحرب فى الاسلام :

منع قتل غير المحاربين ومنع التخريب ـ معاملة ـ الأسرى ـ منع التمثيل بالقتلىٰ وتعذيب الجرحىٰ ـ الوفاء بتأمين المحارب ـ سماحة الاسلام ـ عقد الصلح ـ سبق الاسلام للقانون الدولى .

٥ ـ بناء المقاتل :

منهج الاسلام فى بناء الشخصية الاسلامية ـ الصحة النفسية ـ الصحة البدنية .

٦ ـ اعداد القادة :

معايير اختيار القادة ـ صفات القيادة ـ محمد ﷺ المثل الكامل ـ القيادة الاقناعية والقيادة الارغامية ـ مبادىء القيادة ـ كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته .

٧ ـ الانضباط والتقاليد العسكرية :

بناء الانضباط على أساس الحرية والكرامة الانسانية ـ تنمية الضمير الدينى ـ تقدير المسئول والاخلاص فى العمل ـ التدريب العملى على الانضباط ـ الاسلام ، وتقاليد الطاعة والنظام والاقدمية ـ العناية بالاسلحة والمعدات ـ الأخلاق الفاضلة .

٨ ـ بناء الروح المعنوية وارادة القتال :

العوامل المعنوية فى التخطيط الاستراتيجى ـ القتال عن عقيدة ـ شرف المهمة والهدف ـ تنمية الاحساس بالخطر المحدق بالأمة ـ الثقة بالنفس والقائد والسلاح والأمة ـ التحصين المعنوى ضد شدائد الحرب ـ التعبئة المعنوية قبل المعركة وخلالها ـ رفع المعنويات بالعمل العسكرى .

٩ ـ بناء روح الفريق :

الوحدة والتعاون ـ فضيلة انكار الذات ـ الفخر والانتماء للجيش ـ علاج العوامل المؤثرة على روح الفريق .

١٠ ـ التدريب على القتال :

تقوية الاجسام ـ الرمى ـ استخدام الأسلحة ـ الفروسية ـ محو الأمية ـ استخدام العقل والحواس ـ آداب المعلم ـ استمرار التدريب ـ المنافسة .

١١ ـ العلم والبحوث العلمية والتطوير :

عناية الاسلام بالعلم والبحث العلمى والتطور ـ المنهج العلمى منهج اسلامى ـ التطوير لملاحقة مقتضيات العصر ـ العلم العسكرى والتاريخ الحربى وفن الحرب .

١٢ ـ نظرية الردع فى الاسلام :

الآية الكريمة ٦٠ من سورة الانفال ـ الهدف من اعداد القوة والرباط ـ ارهاب الأعداء واخافتهم من عاقبة عدوانهم ـ الردع الاسلامى طابعه دفاعى وله القدرة الهجومية لردع المعتدى ـ أسس الردع : القوة الشاملة ـ التأهب الدائم ـ اعداد الأمة للحرب ـ تحقيق الاكتفاء الذاتى ـ تطوير القوة لتناسب كل عصر ـ ردع العدو والمستتر .

١٣ ـ الحرب النفسية :

الأثر النفسى لاعداد القوة الرادعة ـ الجهاد باللسان ـ صور وأشكال الحرب النفسية فى الاسلام ـ طرق الوقاية من الحرب النفسية ـ ازالة آثار الحرب النفسية .

١٤ ـ درجة الاستعداد القتالى :

وقاية الأمة من التعرض للمباغتة ـ وسائل الانذار والاستطلاع ـ الحراسة المستمرة ـ الاحتفاظ بجزء من الجيش

مستعداً للقتال الفورى ـ وجود قوات مسلحة عاملة على درجة عالية من الكفاءة القتالية ـ نظام دقيق وسريع للنفير (التعبئة) درجات الاستعداد القتالى .

١٥ ـ توجيهات الاسلام فى القتال :

شرف النصر أو الشهادة ـ التعاون بين المقاتلين ـ روح «الصف» و «البنيان المرصوص» ـ فى القتال ـ الثبات فى المعركة والصبر على شدائد القتال ـ ، المناورة فى القتال ـ العنف فى القتال ـ خفة الحركة والمفاجأة والخداع ـ دور المرأة فى المعركة ـ ذكر الله فى ساحة المعركة .

١٦ ـ الادارة العلمية للحرب :

التخطيط ـ مبدأ الشورى فى التخطيط والتنظيم ـ اصدار القرارات ـ الرقابة ـ التقييم .

١٧ ـ اعداد الدولة للحرب :

مفهوم اعداد الدولة للحرب فى اطار مبدأ الجهاد بالأموال والأنفس ـ وحدة الأمة وتماسك الجبهة الداخلية ـ الارادة القتالية للشعب والجيش ـ دور الاعلام .

١٨ ـ اقتصاديات الحرب :

ربط الاسلام بين الاستراتيجية العسكرية والاقتصاد ـ التعبئة الاقتصادية فريضة وتكليف ـ التكامل الاقتصادى للأمة الاسلامية ـ العمل ومضاعفة الانتاج ـ ضبط الاستهلاك ومحاربة الاسراف ـ تحريم الاحتكار واستغلال ظروف الحرب لتحقيق الأرباح .

١٩ ـ الصناعة الحربية :

صناعة الحديد والصلب ـ الصناعة الثقيلة كأساس للصناعة الحربية ـ البحث العلمى والتقدم التقنى (التكنولوجى) .

٢٠ ـ رعاية المقاتلين والشهداء وضحايا الحرب :

مبدأ التكافل فى الاسلام ـ مسئولية الدولة ـ مسئولية المسلمين بعضهم عن بعض .

٢١ ـ المخابرات والأمن ومقاومة الجاسوسية :

المخابرات التكتيكية والاستراتيجية ـ صفات رجل المخابرات ـ تعلم لغة العدو ـ استخدام (الشفرة) ـ الكتمان والمحافظة على الأسرار ـ غرس وعى الأمن والسرية بالتربية والتوعية ـ دور الفرد ودور الدولة .

٢٢ ـ التاريخ الحربى الإسلامى : ـ

دراسة معارك الإسلام من عصر النبوة إلى نهاية عصر الفتوحات طبقا للأسلوب العلمى لدراسة التاريخ الحربى .

ثانيا : تطبيق مبادئ العسكرية الإسلامية فى التدريب والتعليم العسكرى : ـ

ويتم تطبيق مبادئ العسكرية الإسلامية فى التدريب والتعليم العسكرى ابتداء من مرحلة التعليم الأساسى للمواطن الذى ينخرط فى سلك الجندية أو يلتحق بالكلية العسكرية الى مختلف أوجه العمل فى الجيوش مع إجراء ما يقتضيه ذلك من تعديلات أو تغييرات فى

أساليب التعليم والأوامر والتعليمات المتعلقة بالتنظيم والإدارة الى غير ذلك .. وفيما يلى بعض الأمثلة لأسلوب التطبيق : ـ

١ ـ فى مراكز التعليم الأساسية للجنود الجدد وفى الكليات العسكرية يتم غرس وتنمية التقاليد العسكرية كالنظام والانضباط والطاعة على أساس النظرية الإسلامية التى تقوم على الأركان الآتية[١] : ـ

(أ) الحرية والكرامة الإنسانية .

(ب) تنمية الضمير الدينى .

(جـ) تقدير المسئولية والإخلاص فى العمل .

(د) التدريب العملى على الانضباط .

(هـ) ربط التقاليد العسكرية بتعاليم الإسلام .

بهذا المنهج الاسلامى يفهم الفرد أن الطاعة ليست خضوعاً للسلطة ولكنها «ضرورة اجتماعية» لصالح الجماعة الاسلامية ، وأن طاعة القائد أمر يدعو إليه الدين ووسيلة إلى مرضاة الله ، فيصبح مطيعاً عن عقيدة واقناع وهكذا بالنسبة لباقى التقاليد العسكرية .

٢ ـ تصدر قيادات الجيوش فى الدول الاسلامية قراراً بما يلى :

(أ) أن تكون العقيدة القتالية للجيش هى : «الجهاد فى سبيل الله» .

(ب) أن يكون شعار المقاتلين هو : «النصر أو الشهادة»

---

(١) انظر : «المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الاسلامية» . الفصل ١٨ .

(جـ) أن تكون صيحة القتال هى : «الله أكبر» .

ولكى تدخل هذه القرارات فى حياة الجيوش الواقعية ينبغى أن تصدر بشأنها «تعليمات تنفيذية» كما يلى على سبيل المثال :

١ ـ تعديل صيغة «يمين الولاء» الذى يؤديه خريجوا الكليات العسكرية وصيغة «تولى القيادة» و «تسلم السلاح» وما يشبهها بحيث تتضمن ذكر العقيدة القتالية وشعار المقاتلين وذلك بأن يختتم اليمين بقول : «الجهاد فى سبيل الله : عقيدتنا ، والنصر أو الشهادة : شعارنا» (وذلك على سبيل المثال) .

٢ ـ تكون المهمة الرئيسية لاجهزة التوجيه المعنوى فى الجيوش غرس عقيدة الجهاد فى قلوب الرجال وشرح مفاهيمها وربط التقاليد العسكرية ومختلف أوجه النشاط العسكرى فى السلم والحرب بها حتىٰ يصبح الرجال «عقيديين» ، فيقبلون على التدريب واداء الواجبات بكل اخلاص وحماسة . ويقاتلون فى الحرب بكل اقدام وشجاعة وفدائية .

٣ ـ تصدر تعليمات ادارية تنظم اسلوب ترديد صيحة القتال «الله أكبر» أثناء التدريب اليومى بالنسبة لكل سلاح من أسلحة الجيش (مثلاً : جنود المشاة : عند التدريب على الطعن والقتال المتلاحم والاقتحام .. الخ ..

وجنود الدبابات : عند ركوب الدبابة ... الخ) .

٤ ـ تطبق الجيوش منهج الاسلام فى بناء الشخصية الاسلامية . لاعداد الفرد بحيث يكون مقاتلاً صحيح الجسم

والعقل والنفس[1] . على أساس عقيدة التوحيد وتحرير الفرد من العبودية لغير الله ، وغرس أركان الصحة النفسية التى تجعله شخصاً سوياً ، ورعاية صحته وتقوية بدنه وتنمية ملكة التفكير العلمى لديه .

٥ ـ وعلى هذا النمط يتم تطبيق مبادىء العسكرية الاسلامية ونظرياتها[1] .

ثالثاً : إنشاء المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية :

ونقترح أيضاً أن ينشأ مركز اسلامى للدراسات الاستراتيجية ضمن أجهزة رابطة العالم الاسلامى وأن تقوم بينه وبين مراكز البحث العلمى فى جيوش الدول الاسلامية ومعاهدها العليا صلات وثيقة فى سبيل المصلحة العليا للأمة الاسلامية . ويقترح أن يكون من مهام هذا المركز بعد انشائه ما يلى :

١ ـ تقنين العقيدة العسكرية الاسلامية :

والهدف من ذلك هو توفير المراجع العلمية الوافية فى مبادىء ونظريات العسكرية الاسلامية لكى تستعين بها الدول الاسلامية فى تدريس هذه المادة فى مدارسها وكلياتها العسكرية وتصميم مناهج الدراسة على المستويات المختلفة (مستوى البكالوريوس ـ الماجستير ـ الدكتوراة) .

---

(١) أنظر المبحث الثانى والثالث من هذا البحث .

(٢) للاسترشاد أنظر «المدخل إلى العقيدة الاستراتيجية العسكرية الاسلامية» .

٢ - تدوين التاريخ العسكرى الاسلامى :

إن المتوفر الآن من مؤلفات فى التاريخ الحربى الاسلامى هو من انتاج المؤرخين والمفكرين العسكريين بصورة فردية . والحق أن تدوين التاريخ العسكري الاسلامى كما ينبغى يتجاوز قدرات الأفراد . وكل مسلم غيور على دينه لا يرضى أن تكون امتنا صاحبة التاريخ المجيد أقل من غيرها من الأمم اهتماماً بتاريخها الحربى . فقبل أن تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها ارادت الولايات المتحدة الأمريكية تدوين تاريخها الحربى عن تلك الحرب . فشكلت لذلك هيئة تضم مائتين من العلماء والمؤرخين وهيأت لهم كل الوسائل والاعتمادات المالية فظلوا يعملون أربعة عشر عاماً اخرجوا خلالها قرابة الثلاثين من المجلدات .. ولتدوين التاريخ الحربى منهج تعارف عليه الرجال العسكريون فى كل مكان ، وهو يحتوى على العناصر التالية :

الظروف السائدة محلياً ودولياً ـ الهدف من الحرب أو المعركة ـ أحوال مسرح الحرب فيما يتعلق بطبيعة وأحوال الأرض (طبوغرافيته) وبالسكان والقوى البشرية (ديموغرافيته) وبمناخه ـ المقارنة العددية والنوعية بين قوات الطرفين أو الأطراف المتصارعة واسلحتها ومعداتها واساليبها القتالية وعقائدها الحربية ـ خطط الأطراف المتصارعة ـ سير القتال ـ القضايا الادارية والفنية ـ نتائج المعركة أو الحرب ـ الدروس المستفادة والخبرة المكتسبة ـ النظريات الحربية ومبادىء الحرب التى كان تطبيقها سبباً فى فوز أحد الأطراف . والتى كان أهمالها سبباً فى هزيمة الطرف الآخر ـ وتعتبر

الخرائط والمخططات والاحصائيات والصور من أهم الوثائق والزمها في عملية تسجيل ودراسة التاريخ الحربي .

ولو تصورنا أن مركز الدراسات الاستراتيجية المقترح قد انشأ هيئة لتدوين التاريخ الحربي الاسلامي ويسر لها الحصول على المصادر والمراجع من كتب ومخطوطات ومقتنيات المتاحف ليس فى بلاد المسلمين فحسب بل فى بلاد العالم . بحيث يضع العلماء والمؤرخون أيديهم على كل ما قيل أو كتب حول معارك الاسلام قديماً وحديثاً ليس بمعرفة المؤرخين المسلمين فحسب بل بمعرفة مؤرخى الدول الأخرى عامة ومؤرخى الدول التى حاربت المسلمين بخاصة[1] .

لو تصورنا ذلك ، لأمكننا أن نتصور ما سوف تنتجه عقول علمائنا ومفكرينا مجتمعين من مراجع فى التاريخ الحربي الاسلامى ، هي بالتأكيد أفضل وأدق ما يمكن أن يقال فى هذا المجال .

إننا بهذا العمل الكبير نوفر للأمة الاسلامية ـ لأول مرة فى تاريخها ـ مرجعاً علمياً دقيقاً ونافعاً فى التاريخ الحربي ، ونحقق بذلك هدفين :

(أ) أن يدرس العسكريون تاريخهم الحربي ونظريات الاسلام الحربية على النحو الذى تعارف عليه العسكريون فى كل مكان ، وان يتخذوه أساساً أصيلاً لصياغة استراتيجيتهم العسكرية وفقاً لمتطلبات كل عصر .

(ب) أن نصحح المفاهيم التى سادت فى الدول الأجنبية عن تخلف

---

(١) معرفة وجهة نظر «الجانب الآخر» من الضرورات الحيوية لتسجيل التاريخ الحربي .

الاسلام فى مجال العلم العسكرى وفن الحرب . وحفلت بها المراجع التى تناولت تاريخ الحروب وتطور فن الحرب[٢] .

٣ ـ تنمية طريقة الخبراء العسكريين المسلمين لقيادة عمليات البحث العلمى :

إن لدى الكثير من جيوش الأمة الاسلامية حصيلة هائلة من المعرفة العسكرية والخبرة العلمية المكتسبة من القتال وصناعة السلاح .. وكثير من قادتنا لديهم معرفة عميقة بالعقائد والنظم العسكرية العالمية المعاصرة شرقية كانت أم غربية . وذلك عن طريق الدراسة فى معاهدها وممارسة الحرب والقتال تطبيقاً لها ، بل ان لدينا خبرات حربية خاصة بنا لم تتوفر للجيوش العالمية المعاصرة حتى لقد اندفعت جيوش العالم نحو دراستها وتطوير نظمها على أساسها[١] .

ولدينا فى مجالات صناعة السلاح خبرات واسعة لها وزنها وخاصة إذا اضفنا ما أصبح لدينا من علم وخبرة فى مجال الطاقة الذرية فى كثير من الدول الاسلامية . وليس من شك فى أن اولئك الخبراء العسكريين هم ثروة اسلامية ينبغى الحرص عليها وتنميتها ،

---

(١) من ذلك على سبيل المثال :

The Ensyclopedia of Military His

— tory By Ernest Supuy & Trevor N. Supuy

(٢) مثال ذلك ما يتعلق باستخدام الصواريخ وبالحرب الالكترونية ونظم الدفاع الجوى فى حرب رمضان .

ومن أهم ما يحقق ذلك إنشاء مركز الدراسات الاستراتيجية الذى يمكنه تنظيم الافادة منهم إلى اقصىٰ حد لصالح المسلمين ، وليس من شك أيضاً فى أن الخبراء العسكريين المسلمين أقدر من غيرهم من الأجانب وأولى بقيادة عمليات البحث والدراسة والابتكار والتطوير بما يتلاءم مع الظروف الموضوعية لبلاد الاسلام .. وبذلك نعوض سنوات التخلف بسرعة ، ونلحق بركب التقدم والتطور ، ونبنى لأمتنا القدرات الدفاعية الذاتية .

٤ ـ تعميم الخبرات العسكرية المكتسبة فى الداخل والخارج على الأمة الاسلامية من خلال ما يلى :

(أ) متابعة التطورات العلمية والتقنية فى المجال الحربى وارشاد الدول الاسلامية إلى ما يصلح لها منها طبقاً لظروفها واوضاعها الاستراتيجية .

(ب) عقد الندوات والمؤتمرات العلمية دورياً لبحث ودراسة القضايا المتعلقة بالدفاع .

(جـ) تشجيع المفكرين العسكريين المسلمين على البحث والتأليف فى العلوم العسكرية .

(د) تشجيع حركة الترجمة لافادة المسلمين من البحوث الأجنبية فى العلوم العسكرية .

رابعاً : نشر الثقافة العسكرية على أوسع نطاق :

إن المعرفة العسكرية لم تعد فى هذا العصر وقفاً على الرجال

العسكريين المتخصصين وحدهم . وهو ما كان أمراً طبيعياً فى الماضى وقت أن كانت الحروب تقتصر على الميدان الذى تتصارع فيه الجيوش .

فنى هذا العصر لم تعد هناك بقعة من الأرض على طول البلاد وعرضها بعيدة عن متناول العدو ، واصبحت الحرب تدار عسكرياً واقتصادياً وسياسياً واجتماعياً ، واصبحت ادارة الحرب تتولاها القيادات العليا السياسية والعسكرية ..

من أجل ذلك أصبحت الثقافة العسكرية من جوانب الثقافة العامة اللازمة لابناء الأمة لكى يؤدوا دورهم ـ كل فى موقعه وبحسب اختصاصه ـ بوعى وفهم وايجابية .

ويؤكد هذا المبدأ ما استقر عليه رأى خبراء السياسة والحرب فى هذا العصر من أن قدرة الدولة على بلوغ غايتها وتحقيق اهدافها وقدرتها على خوض الحرب واحتمال اعبائها وتكاليفها ، لا يتأتى باعداد جيشها للقتال وتزويده باحدث الأسلحة واقواها فحسب ، بل يتأتى أيضاً باعداد الشعب وكل مرافق الدولة ، حتى ظهرت مصطلحات جديدة فى عصرنا تعبر عن هذا المفهوم مثل «اعداد الدولة للحرب» و «الكيان العسكرى للأمة» .

والأمة الاسلامية اولى بتطبيق هذا المبدأ ، «فالتكليف بالجهاد» الذى شرفها به المولى . هو تكليف لأبناء الأمة جميعاً لا فرق فيه بين جيش وشعب .

ومن أجل ذلك نقترح ما يلى :

١ ـ أن تقوم وزارات الاعلام والثقافة فى كل بلاد الاسلام

بالتنسيق مع وزارات الدفاع بتحديد ما يدخل فى مفهوم «الثقافة العسكرية العامة» ثم تنظيم عملية نشرها على الناس بمختلف وسائل الاعلام .

٢ ـ أن يتم تقديم موضوعات الثقافة العسكرية فى المدارس والجامعات .

٣ ـ ونقترح أن يكون من بين هذه الموضوعات ما يلى :

(أ) الأمن : أهمية المحافظة على الأسرار ومنع ترويج الشائعات .

(ب) الحرب النفسية : مفاهيمها ـ اهدافها ـ اساليبها ـ طرق الوقاية منها .

(جـ) الجاسوسية ـ أساليبها ـ دور المواطن فى معاونة الدولة فى مكافحتها .

(د) الانضباط : كمطلب عام لا ينحصر فى الاطار العسكرى وحده .

(هـ) الدفاع الشعبى عن المنشآت الحيوية وأعمال الاسعاف والانقاذ واطفاء الحرائق .

الفهـــرس

